شجرة الحب
في
القرآن الكريم

الدكتور محمد عمر الحاجي

دار طيبة

شجرة الحب في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

جميع الحقوق محفوظة لدار طيبة

للطباعة - والنشر - والتوزيع

دمشق - سوريا - حلبوني - تلفاكس: ٢٢٤٨٢٠٠ جوال: ٩٤٤/٩٧٧٢٢٢. ص.ب: ٦٣٩١

E-mail : taiba@cec.sy

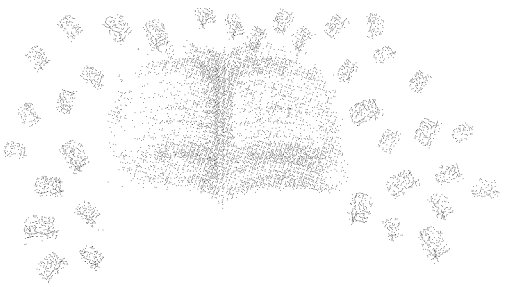

شجرة الحب

في

القرآن الكريم

تمهيـــد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل محَبته شفاءً للأرواح ، ونوراً للأبصار ، وقوتاً للقلوب، والصلاة والسلام علىٰ حامل لواء الحبّ ، سيِّد المحبيِّن محمد رسول الله ﷺ ، الذي كان يُكثر من الدعاء بقوله: «اللهم ارزقني حُبَّك ، وحُبَّ من ينفعني حُبَّه عندك ، اللهم ما رزقتني مما أُحبُّ فاجعله قوةً لي فيما تحبّ ، اللهم وما زويتَ عني مما أحبُّ فاجعله قوةً فيما تحبّ»[1].

وبعد:

كنت ذات يومٍ أطالع إحدىٰ موسوعات كتب التراث ، فوجدت فيها هذه الحكاية:

قال الإمام الجنيد رحمه الله: دفع لي السّري السقطي رقعةً وقال: هذه خيرٌ لك من سبعمائةٍ فضّة ، فإذا فيها:

ولما ادّعيتُ الحبَّ قالت: كذبتني ... فمالي أرىٰ الأعضاء منك كواسيا
فما الحبُّ حتىٰ يلصَقَ الظَّهر بالحشا ... وتَـذْبُـلَ حتـىٰ لا تُجيـبُ المنـاديـا
وتنحـلَّ حتـىٰ لا يُبقِّـي لـك الهـوى ... سـوىٰ مُقلـةٍ تبكـي بهـا وتُنـاجيـا[2]

وخطر ببالي سؤال يقف كثيرون عنده: ماذا عن الحبّ في الميزان الشرعي؟.

وعدتُ إلىٰ أمهات الكتب ، فوجدت حديثاً متشعباً ومتفرعاً ، لكن هناك تناقضات عجيبة ، فهذا يبيح ويحلّل ، وذاك يستنكر ويحرّم!!

وقلت في نفسي: إن العودة إلىٰ الأصول هي الأصول ، فعدت إلىٰ القرآن الكريم والسنّة الطاهرة ، فوجدت الأمر أبسط ما يكون!!

---

(١) سنن الترمذي: رقمه (٣٤٩٠).

(٢) شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي: ٢/ ١٢٧.

فهناك شجرة تمثّل الحبّ ، وأصل تلك الشجرة راسخ وثابت ، ونعني بذلك محبّة الله تعالى .

ولتلك الشجرة ساق سامق ، ونعني بذلك محبّة المصطفىٰ ﷺ .

ولتلك الشجرة أغصان وفروع كثيرة ، منها : محبة القرآن الكريم ، ومحبة الإنسان لوالديه ، ومحبة الصحابة وآل البيت ، ومحبة الجيران والأرحام والأصدقاء ، ومحبة المؤمنين وجميع خلق الله سبحانه ، ومحبة مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس وكل بلاد المسلمين ، ومحبة العلم والعلماء ، والشهادة والشهداء ، والصالحين والصالحات ، وما إلىٰ هنالك . . .

وهكذا كانت فكرة هذا الكتاب، عسىٰ أن تُغرس شجرة الحب في قلوبنا ، وتُسقىٰ بماء الإخلاص ، مرددين مع حبيبنا المصطفى ﷺ :

«اللهم إني أسألك حّبك، وحبّ من يحبّك، والعمل الذي يبلغّني حبك، اللهم اجعل حبّك أحبّ إليّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»[1] .

ونحن في هذا نسير في خطّ الأمل الذي رسمه لنا حبيبنا ﷺ ، وذلك عندما سأله أعرابي : يا رسول الله! متىٰ الساعة؟ قال : «ما أعددت لها؟» فقال : ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيام ، إلا أني أحبّ الله ورسوله .

قال : «المرء مع من أحب»[2]

مرددين قول أحد المحبّين :

يـا ربّ! عبـدٌ قـد أتـىٰ بفعـالـه ... وبـذلّـه قـدْ مَـدَّ كـفَّ سـؤالـه

وأتـىٰ حبيبـك طـامعـاً بنـوالـه ... عبـدُ تـوسّـل بـالنبـيّ وآلـه

فبحقهم يا ربّ لا تخزيه

وصلى الله علىٰ حبيب القلوب محمد ، وعلى آله وصحابته ، ومن سار علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٤٩٠) .

(٢) صحيح البخاري : رقمه (٦١٦٨) .

الباب الأول

في ظلال الحبّ المقدّس!!

الفصل الأول: تعريفات.

الفصل الثاني: آراء الفلاسفة والعلماء في معاني الحبّ.

الفصل الثالث: الحبّ في المجتمعات القديمة.

الفصل الرابع: الحبّ في القرآن والسنّة والسيرة.

الفصل الأول

تعريفات

توجد تعريفات كثيرة لكلمة الحب ، ولكن أهمها :

قال العلامة اللغوي مجد الدين محمد الفيروز آبادي (ت: ٨١٧ هـ):

الحبُّ: الوداد ، كالحباب ، والحِبّ ، بكسرهما ، والمحبَّةُ والحُباب بالضمّ ، أحبَّهُ ، وهو محبوبٌ ، علىٰ غير قياس ، ومُحَبٌّ ، قليلٌ ، وحَبَبْتُه أحِبُّهُ ، بالكسر ، شاذٌ ، حُبًّا ، بالضمّ وبالكسر ، . . . والحبيب: المحُبُّ . . . وحَبُبْتُ إليه ، كَكَرُمَ: صرت حبيباً له ، وحبَّبه إلي: جعلني أحبُّهُ ، وحبابُك كذا ، أي: غاية محبّتك ، أو مبلغ جُهدك ، وتحابُّوا: أحبَّ بعضهم بعضاً . . . (١).

وقال العلاّمة الراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥ هـ):

والحِبُّ: من فرط حُبَّه ، والحَبب: تنضّد الأسنان تشبيهاً بالحب ، والحُباب من الماء: النّفاخات تشبيهاً به ، وحَبَّةُ القلب تشبيهاً بالحبّة في الهيئة ، وحَببتُ فلاناً ، يقال في الأصل بمعنىٰ: أصبتُ حبّة قلبه ، نحو: شغفته وكبدْته وفأدْته ، وأحببتُ فلاناً: جعلت قلبي معرّضاً لحبّه ، لكن في التعارف وُضع محبوب موضع محبّ ، واستعمل (حببتُ) أيضاً موضع (أحببت).

والمحبة: إرادة ما نراه أو نظنّه خيراً ، وهي علىٰ ثلاثة أوجه:

محبّة للذة، كمحبة الرجل المرأة، ومنه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾(٢).

---

(١) القاموس المحيط: مادة (حبب): ١/ ١٤٤.

(٢) الإنسان: ٨.

ومحبّة للنفع ، كمحبة شيء يُنتفع به ، ومنه : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[1] .

ومحبّة للفضل ، كمحبة أهل العلم بعضهم بعضاً لأجل العلم .

وربما فُسّرت المحبّة بالإرادة ، في نحو قوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾[2] وليست كذلك ، فإن المحبة أبلغ من الإرادة كما تقدّم آنفاً ، فكل محبة إرادة ، وليس كل إرادة محبة .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾[3] أي : إن آثروه عليه ، وحقيقة الاستحباب : أن يتحرّىٰ الإنسان في الشيء أن يحبّه ، واقتضىٰ تعديته بـ (علىٰ) إلىٰ معنىٰ الإيثار . . . .[4] .

وهناك ألفاظ ذات صلة بالموضوع ، أهمها :

أ ـ المودة : وهي محبّة الشيء وتمنّي كونه ، ويستعمل في كل واحد من المعنيين ؛ علىٰ أنَّ التمنّي يتضمّن معنىٰ الودّ ، لأن التمني هو تشهّي حصول ما تودّه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[5] ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن هذا المعنىٰ اللغوي .

والفرق بين المحبة والمودة ، أن الحبّ يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعاً ، والودّ من جهة ميل الطباع فقط[6] .

وعلىٰ هذا فالمحبّة أعمّ من المودّة . . .

ب ـ العشق :

في اللغة : الإغرام بالنساء ، والإفراط في المحبّة .

---

(١) الصف : ١٣ .
(٢) التوبة : ١٠٨ .
(٣) التوبة : ٢٣ .
(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٥) الروم : ٢١ .
(٦) للتوسّع يراجع : الفروق اللغوية : ٩٩ ـ ١٠٠ .

ولا يخرج المعنىٰ الاصطلاحي عن المعنىٰ اللغوي ، والصلة بين المحبة والعشق أن المحبة أعمّ من العشق .

جـ ـ الإرادة :

في الأصل هي قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ، وجعل اسماً لنزوع النفس إلىٰ الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل .

ثم يستعمل مرة في المبدأ وهو نزوع النفس إلىٰ الشيء ، وتارةً في المنتهىٰ وهو الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل ، أو لا يفعل .

وقد تُذكر الإرادة ويُراد بها القصد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1] أي : لا يقصدونه ولا يطلبونه .

ولا يخرج المعنىٰ الاصطلاحي عن المعنىٰ اللغوي . . .

والصلة بين المحبة والإرادة أن المحبّة أعمّ من الإرادة . . .

ويتشعبّ عن معنىٰ (الحبّ) عدة معان ، منها :

قول رسول الله ﷺ : «تهادوا تحابّوا»[2] أي : يحبّ بعضكم بعضاً .

وقوله ﷺ : «هذا جبلٌ يُحبّنا ونُحبّه»[3] .

وعرّف العلاّمة الكفوي رحمه الله الحبّ بقوله : (هو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذّ ، فإن تأكدّ الميل وقوي يُسمىٰ : عشقاً)[4] .

---

(١) القصص : ٨٣ .

(٢) موطأ مالك : ٢/ ٩٠٨ .

(٣) صحيح البخاري : ٤/ ٧٣ ، ٦/ ٦٢ ، ٣/ ٢٧٣ .

(٤) الكليات : ٣٩٨ .

الفصل الثاني

آراء الفلاسفة والعلماء في معاني الحبّ

غالبية الفلاسفة والحكماء والعلماء قد أدلوا بدلوهم في الحديث عن معاني الحبّ ، ومن ذلك :

قال (أفلاطون) : الحب قوّة توطّد العلاقات بين المخلوقات ، وإن ابتسامة الحبّ تلمع بين السماء والأرض ، وإن الحبّ إرادة ثابتة جذّابة تجذب الجنسين وتجعل الاثنين معاً .

وأما العشق : فقوة غريزية متولّدة من وسواس الطمع وأشباح التخيّل ، نام بنصال الهيكل الطبيعي ، محدث للشجاع جبناً وللجبان شجاعة ، يكسو كل إنسان عكس طباعه حتىٰ يبلغ به المرض النفساني والجنون الشوقي ، فيوديانه إلىٰ الداء العضال الذي لا دواء له .

وقال (أبقراط) :

الحبّ : هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بماء مثله ، عسر تخليصه من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء وأرقّ مسلكاً في أصل ذلك، لا تزيله الليالي ، ولا تحلقه الدهور ، مجهول عن الأوهام مسلكه ، وخفي عن الأبصار موضعه ، غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير إلىٰ سائر الأعضاء ، فتظهر الرعدة في الأطراف، والصفرةُ في الألوان، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي، حتىٰ ينسب صاحبه إلىٰ النقص .

وقال (جالينوس) :

المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين في الحمق ، لأن العقل يجري علىٰ ترتيب ، فهما يجريان فيه علىٰ

طريق واحدة ، والأحمق لا يجري علىٰ ترتيب ، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان ، ولا يختلفان.

وقال (فيثاغورس):

العشق طمع يتولد في القلب يغني عن النظر ، ثم ينحو ويحدث اللجاج والاحتراق ، حتىٰ إن الدم يهرب عند ذكر المحبوب ، وقد يموت من شهقةٍ أو برؤية المحبوب بغتة ، وربما اختنقت الروح من نحو ذلك ، فدفن ولم يمت!

وقال (ج. سربليد):

الحب شريعة يخضع لها المجتمع البشري ، فتفرض نفسها علىٰ جميع الأمم والنحل ، لأنه حياة الأنفس ومجمع العبادة والإحساس الروحي لعزاء البشر ، كما أنه رغبة شهوانية. . . . ، والحب ميدان فسيح الأرجاء ، لا يقتصر علىٰ الحبّ الشهواني فقط ، بل ينبض القلب بالحبّ الروحاني والنفساني ، فيقترب ما بين الحبين الشهواني والروحاني ، فيمزج النفوس بحبل متين من الصداقة والمحبة العذبة. . . ، والحب عاطفة حقة، وطبيعة حتمية، وإرادة من الله تعالىٰ ، فحرام علينا أن نطعن الحبّ في الصميم وأن نطرحه جانباً خجلين ، ونزيله من الوجود ، كأنه رذيلة وإثم كبير يرتكبه الإنسان. . . ، والحبّ عاطفة متمكنة في عمق قلب الإنسان ، وهو الشريعة العظمىٰ لطبيعة الإنسان التي جادت بها السماء علىٰ البشر ، لذلك فعلىٰ كل رجل عاقل أن ينتخب الحبّ الطاهر الذي عليه تبنىٰ الأسرة ، وأن يتجّنب الحبّ المريض الذي يهدم أسس العائلة، ويسير بها إلىٰ الخراب، وإلى تقطيع أوصالها.

وقال (ألفرد دي موسيه):

الحب هو أن يعطي الإنسان نفسه لآخر جسماً وروحاً ، وبعبارة أصحّ فهو يجعل من اثنين مخلوقاً واحداً قادراً علىٰ التنزّه تحت الشمس وفي الهواء الطّلق وسط المزارع والحقول بجسد واحدٍ له أربعة أذرع ورأسان وقلبان. . . ، وهو الإيمان ، بل هو دين السعادة في هذه الحياة الدنيا ، فهو مثل نور يبيد ظلام قبة هذا الهيكل الذي نسّميه العالم.

شجرة الحب في القرآن الكريم

ولكن الحبّ أفضل من الذكاء لأنه لا يساعد علىٰ تحسين المواهب فحسب ، بل يتعدّىٰ إلىٰ مضاعفتها ، لأنه يمكن للإنسان أن يضمّ قلباً إلىٰ قلبه وذكاءً علىٰ ذكائه ، وفي ذلك السعادة القصوىٰ . . .

وقال (شكسبير) :

إن الحبّ هو أن تكون مصنوعاً من التهذيب والدموع والإيمان والخدمة والوهم والهوىٰ والرغبة والعبادة والواجب وحفظ العهد والوداعة والصبر والضجر والطهارة والمحنة . . . .

إذن :

كلما كثرت تعريفات العلماء والفلاسفة لكلمة الحبّ ، تشعبّت القضية أكثر ، لكن يمكن القول إنها تدور حول واحد من المحاور الأربعة التالية :

١ ـ **الحبّ** : عاطفة مستقلة .

٢ ـ **الحبّ** : مزيج من عواطف مختلفة .

٣ ـ **الحبّ** : ينشأ عن قوىٰ خفيّة .

٤ ـ **الحبّ** : حالة مرضية .

ورحم الله الأديب (عباس محمود العقاد) عندما قال :

فهل للعشق وصف أصدق من أنه مزيجٌ من جنون وسحر ؟ فليس تأثير العشق مما يقف عند الغرض الأول منه ، ولا هو بمقصور علىٰ العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ، ولكنه يمتدّ إلىٰ كل غريزة ، سواء أكان لها ارتباط بالشوق الجنسي ، أم لم يكن ! ![1]

❑ ❑ ❑

(١) للتوسع يراجع : الحبّ لعمر رضا كحالة : ٩ ـ ٢٧ ، والمعجم الفلسفي : ١/ ٤٣٩ .

الفصل الثالث

الحبّ في المجتمعات القديمة

لعلّ أهم ما يميّز العلاقة التي كانت تسود الرجال والنساء أنها عفويّة وتلقائية وفطرية ، إضافةً إلىٰ أن الزواج كان عملية مشاعاً ، فالرجل كان يملك المرأة ويتصّرف بها كما يتصّرف بأي سلعة !!

ولذلك نستطيع القول: إن الحب في ذلكم الزمان كان رهناً بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية . . .

بل ساد اعتقاد عجيب ملخّصه: أنه إذا اتصّل رجل بامرأةٍ في حقل جديد الحرث ، فسيكون لذلك أثر فعّال فيٰ خصوبة الأرض ووفرة النبات ، ولذلك كان الكهنة يعدّون هذا طقساً دينياً واجب التنفيذ ، وبدونه لا تطيب الأرض ولا تكثر غلّة المحصول ، فالأرض أيضاً أنثىٰ ، تبذر وتنتج!!

وأما الأمور الموثقّة التي احتفظ بها التاريخ ، والتي تخدم حديثنا عن الحب في العهود القديمة ، فأهمها:

عند اليونان عرف المجتمع مصطلح العشق (الإيروس: Eros) وفيه تخصيص للحب الجسدي ، وكذلك مصطلح (أجابيه: Agape) وفيه تخصيص للحب الروحي.

إضافةً إلىٰ جمعهم بين إلٰه الحب (إيروس) وإله الخمر (ديونسيوس) ، معتقدين أن الخمر والحّب يوصلان إلىٰ الاستمتاع والسعادة.

وقد ورد في خطاب (أفلاطون) إلىٰ تلميذه (سقراط) ما يدّل علىٰ ذلك:

(إيه يا عزيزي سقراط! إن الشيء الوحيد الذي يخلع علىٰ هذه الحياه قيمتها إنما هو ذلك المشهد: مشهد الجمال الأزلي الأبدي ، وأي شيء يمكن أن

يكون أعظم من مصير هذا الإنسان الفاني لو قدر له أن يشاهد الجمال الذي لا تشوبه شائبة ، الجمال في صفائه ونقائه وبساطته ، الجمال الذي لا يكسوه لحم ، ولا تغطيه ألوان وأشكال مصيرها إلى الفناء ، أي مصير يمكن أن يكون أعظم من مصير هذا الإنسان، وقد أتيح له أن يشهد في صورته الفريدة ذلك الجمال الإلهي وجهاً لوجه).

وأما عند اليهود والمسيحيين ـ وهو ما يُطلق عليه عصر الإيمان ـ فنجد فلسفة خاصةً للحب ، فتارةً نجد خلطاً وغموضاً ، وتارةً نجد غزلاً تشّم من خلاله روائح الشهوات ونحو ذلك. . .

ففي أسفار اليهود نجد شعر الحب والغزل ، وفي قصص الأسفار هناك حديث عن العلاقات الجنسية المحرّمة!!

وفي نشيد الإنشاد دعوة صريحة إلىٰ الاستشهاد في سبيل الحبّ ، وذلك لأن العريس والعروس يجب أن يحبّ أحدهما الآخر حباً إلىٰ درجة التضحية بالنفس في سبيل الآخر.

أما مفهوم الحبّ في المسيحية فقد أخذ طابعاً آخر:

إذ ظهرت عبارات (حب الله للبشر) و(حب الإنسان لله) و(حنين النفس إلىٰ الله) (والسعي نحو الخير الأسمىٰ) و(لاسعادة لنا إلا في الله) و(إن الله حسبك وكافيك ، وهل يمكن فيما عداه أن تجد ما يشبُعك أو يفنيك؟!) و(إن قال أحدٌ إني أحب الله، وأبغضَ أخاه فهو كاذب ، لأن من لا يحبّ أخاه الذي أبصره ، فكيف يقدر أن يحبّ الله الذي لم يبصره؟) و(ليكن حب بعضكم لبعض كما أنا أحببتكم) من وصايا المسيح عليه السلام. . .

وكان التطبيق العملي لتلك الوصايا الرائعة أن المسيح دافع عن الرابطة الزوجية وأنكر الزنا ، وحظر الطلاق ، ليجعل من الحب بين الرجل وزوجته اتصالاً أبدياً ، وكأنهما جسد واحد. . .

* * *

ولما كان العصر الجاهلي ـ ما قبل الإسلام ـ أصبح للحب نوعٌ آخر. . . ،

وقد أورد الأصفهاني كثيراً من أبيات الشعّر في ذلك ، منها :

أَكْثَـرَ النـاسُ فـي النسـاء وقـالـوا إن حــبّ النســاء جَهْـدُ البـلاءِ
ليـس حـبّ النسـاء جهـداً ولكـن قُـرب مـن لا تحـبّ جَهْـدُ البـلاءِ

ويمكن تقسيم الحب عند العرب إلى ثلاثة أقسام :[1]

١ ـ الحب المعروف والمتداول بين الناس والمتمازجُ بينهم ، وينتهي هذا الشكل من الحبّ إما بعقد قران وزواج ، أو بمصاحبة ومضاجعة بشكل غير شرعي وشاذ.

٢ ـ الحبّ العذري ، وينتهي هذا النوع من الحب إما بإصابة أحد المحبّين المتيمين ، أو المحبّ والمحبوب معاً بعاهات جسدية ونفسية تنهي حياة أحدهما ، أو حياةَ كُلٍّ منهما بالهلاك والموت الزؤام.

٣ ـ الحب الإلهي ، ذاك الذي تسمو روح الإنسان فيه ، وتتغلّب علىٰ حواس الجسد المعروفة وتقوىٰ عليها ، وتتكشف فيه أمام المحب حالات روحية خارقة ، وذوقية غير ملموسة بالحس الجسدي وغير متذوقة لدىٰ الآخرين من العالم . . .

ولعلّ البيئة الصحراوية قد جعلت علاقة الرجل بالمرأة عند العرب تتصف ببعض الصفات حيث التنقلّ سعياً وراء الكلأ والماء ، وحيث الغزو والغارات ، والأخذ بالثأر والعصبيات ، وإكرام الضيف والوفاء بالعهد وحماية الجار و . . .

كل ذلك كان له تأثير كبير علىٰ علاقة الرجل بالمرأة ، لذلك كان بعض العرب يعمد إلىٰ وأد البنت خوفاً من العار ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[2] .

إضافة إلىٰ ما يحدث أثناء الغزوات ، إذ تتحول المرأة إلىٰ أسيرة فيحق للرجل أن يمتلكها ويتصرّف بها كأي سلعة ، ويحق له بيعها وغير ذلك !

---

(١) الحب ، عمر كحالة : ١٨٦ .

(٢) التكوير : ٨ ـ ٩ .

لكن بالمقابل كانت وضعية المرأة تختلط بالأساطير! فبعض الآلهة تحمل أسماء إناث ، وبعض الجنيّات يحملْنَ أسماء إناث ، و . . .

وكان الغزل بالمرأة يجري مجريين :

الغزل العفيف الطاهر : كان يتحدث البدوي عن حبيبته ولا يصرّح باسمها ، كما في قول (امرئ القيس) :

أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل ... وإن كنت قد أزمعت صَرمي فأجملي
وإن تكُ قد ساءتك مني خليقةٌ ... فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسُلِ
أغرّك مني أن حُبَّكِ قاتلي ... وأنك مهما تأمُري القلبَ يفعلِ[1]

والمجرىٰ الثاني هو الغزل الحسي الفاضح : حيث يصف جمال حبيبته ومفاتنها وحليّها وجسدها و . . . ، ويصف مغامرات العاشق ، كما في قول (المنخّل اليشكري) :

ولقد دخلتُ علىٰ الفتا ... ة الخِدْر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تَرْ ... فُل في الدّمقس وفي الحرير
فدفعتُها . . . فتدافعتْ ... مشْيَ القطاةِ إلىٰ الغدير
ولثمتُها فتنفّستْ ... كتنفّس الظّبي البهير
فدنتْ . . . وقالت يامنـ ... ـخَّلُ ، ما بجسمك من حَرُور
ما شفّ جسمي غير حّبـ ... ـك فاهدئي عني وسيري[2]

أجل!

فإلىٰ جانب امرىء القيس والأعشىٰ وأضرابهما ممن يمثّلون الاتجاه الحسّي اللاهي ، عرف المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه طائفة من الشعراء يمثلون الاتجاه الروحي العفيف .

واحتفظ رواة الأدب العربي بكثير من أخبارهم وأشعارهم ، وأطلقوا عليهم اسم (المتيّمين) ، تمييزاً لهم عن سائر الشعراء العشاق الذين يمثّلون الاتجاه

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، معلقة امرىء القيس : ٧ .
(٢) الأصمعيات اختيار الأصمعي : ٦٠ .

الآخر ، وربطوا بين كل متيمّ وصاحبته التي عُرف بها: فالمرقشُ الأكبر وأسماء ، والمرقّش الأصغر وفاطمة ، والمخّبل وميلاء ، وعبد الله بن العجلان وهند ، ومالك بن الصمصامة وجَنُوب ، وقيس بن الحدادية ونُعْم ، وعبد الله بن علقمة وحبُشية ، وعمرو بن كعب وعُقيلة ، ثم أبعدهم صيتاً وأشهرهم ذكراً عنترة وعبلة.

وأما قصة (عنترة مع عبلة) فملخّصها ما يلي: نشأ (عنترة العبسي) من أب عربي هو (عمرو بن شداد) ، وكان سيداً من سادات قبيلته ، وأم أجنبية هي زبيبة الأمة السوداء الحبشية ، وكان أبوه قد سباها في بعض غزواته ، وسرىٰ السواد إلىٰ عنترة من أمه ، ورفض أبوه الاعتراف به ، فاتخذ مكانه بين طبقة العبيد في القبيلة ، خضوعاً لتقاليد المجتمع الجاهلي التي تقضي بإقصاء أولاد الإماء عن سلسلة النسب الذهبية التي كان العرب يحرصون علىٰ أن يظلّ لها نقاؤها ، وعلىٰ أن يكون جميع أفرادها ممن يجمعون الشرف من كلا طرفيه: الآباء والأمهات ، إلا إذا أبدىٰ أحد هؤلاء الهجناء امتيازاً أو نجابة ، فإن المجتمع الجاهلي لم يكن يرىٰ في هذه الحالة ما يمنع من إلحاقه بأبيه.

وحانت الفرصة لعنترة في إحدىٰ غارات طيّىءٍ علىٰ عبس ، فأبدىٰ شجاعةً فائقةً في ردّ المغيرين ، وانتزع بهذا اعتراف أبيه به ، واتخذ مكانه فارساً من فرسان عبس الذين يُشار إليهم بالبنان.

ووقف طفل الحب الخالد يلقي سهامه النافذة ليجمع بين قلب عنترة وقلب ابنة عمه عبلة بنت مالك.

ويتقدم عنترة إلى عمه يخطب إليه ابنته ، ويقف اللون والنسب مرة أخرىٰ في طريقه ، فقد رفض مالك أن يزوّج ابنته من رجلٍ يجري في عروقه دم غير عربي ، وأبت كبرياؤه أن يرضىٰ بعبد أسود مهما تكن شجاعته وفروسيته ـ زوجاً لابنته العربية الحرّة النقية الدم ، الخالصة النسب ، ويقال إنه طلب منه ـ تعجيزاً له وسدّاً للسّبل في وجهه ـ ألف ناقة من نوق الملك النعمان المعروفة بالعصافير مهراً لابنته!

شجرة الدر ـ القرآن الكريم

ويُقال إن عنترة خرج في طلب عصافير النعمان حتىٰ يظفر بعبلة ، وإنه لقي في سبيلها أهوالاً جساماً ، ووقع في الأسر ، وأبدىٰ في سبيل الخلاص منه بطولاتٍ خارقة ، ثم تحقق له في النهاية حلمه ، وعاد إلىٰ قبيلته ومعه مهر عبلة ألفاً من عصافير الملك النعمان .

ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططاً ، ثم فكرّ في أن يتخلّص منه ، فعرض ابنته على فرسان القبائل علىٰ أن يكون المهر رأس عنترة ، ثم تكون النهاية التي أغفلتها المصادر القديمة ، وتركت الباحثين عنها يختلفون حولها ، فمنهم من يرىٰ أن عنترة فاز بعبلة وتزوجها ، ومنهم من يرى أنه لم يتزوجها وإنما ظفر بها فارس آخر من فرسان العرب!!

علىٰ كلٍ لقد ظل الحبّ يملأ قلب عنترة ، وظلّ خيال حبيبته عبلة لا يفارقه لحظة واحدة ، مما جعل همّه يتركز علىٰ شيء واحد : ماذا سيكون مصير حبيبته من بعده؟!

وقد سجّل ذلك كله في أشعاره ، من ذلك قوله :

فالقتلُ لي من بعد عبلة راحة ... والعيش بعد فراقها منكودُ
يا عبل! قد دنت المنية فاندبي ... إن كان جفنك بالدموع يجودُ
يا عبل! إن تبكي عليّ فقد بكىٰ ... صَرْفُ الزمان عليّ وهو حسودُ
يا عبل! إن سفكوا دمي ففضائلي ... في كل يوم ذكرهنّ جديدُ
لهفي عليك إذا بقيت سبيّة ... تدْعِينَ عنتر وهو عنك بعيدُ[1]

أجل!

لقد عبّر الجاهليون عن الحبّ بأعذب وأرقّ وأنفذ الألفاظ إلىٰ القلوب قبل الأسماع ، والشيء الرائع هو ما كانوا يحملونه من عفوية بدوية ، وصدق وبساطة ، كما في قول شاعرهم :

وأحبُّها . . . وتُحبّني ... ويحبُّ ناقتها بعيري!!

(١) للتوسع يراجع : الحب المثالي عند العرب ، د. يوسف خليف : ٧٧ ـ ٩١ .

أو قول أحد الأعراب ، وذلك عندما سُئل عن كتمان الحب ، وصبّر المحبّ:

شكـوتُ فقـالـت: كـلُّ هـذا تبـرّمـاً بحُبّـي ، أراح الله قلبـك مـن حبّـي
فلما كتمتُ الحبَّ قالت: لَشَدَّ ما صَبَرْت ، وما هذا بفعل شجي القَلْبِ
وأدنـو فتُقصينـي ، فـأبْعُـدُ طـالبـاً رضاها ، فتعتدُّ التباعُدَ من ذنبي
فشكوايَ تُؤذيها ، وصبري يَسُوءها وتجزع من بُعدي ، وتنفر من قُربي
فيا قومِ هل من حيلةٍ تعلمونها؟ أشيروا بها، واستوجبوا الشكر من ربي

ولذلك كان وصفهم للحبّ وصفاً لا مثيل له ، خاصة الشعراء العشاق ، كما في قول أحدهم:

الحبُّ أصعب ما رُكب ، وأسكرُ ما شُرب ، وأقطعُ مالُقيَ ، وأحلىٰ ما اشتُهي ، وأوجع ما بطنَ ، وأشهىٰ ما عَلَنَ ، ثم أنشد:

وللحـبِّ آفـاتٌ إذا هـي صـرّحـتْ تبـدّتْ عـلامـاتٌ لهـا غُـرَرٌ صُفـرُ
فبـاطنـهُ سُقَـمٌ وظـاهـرهُ جَـوَىً وأوّلُـــهُ ذِكْـــرٌ وآخـــرهُ فكـــرُ

❑ ❑ ❑

الفصل الرابع

الحبّ في القرآن والسنّة والسيرة

سئل (حمّاد) الراوية: ما هو الحبّ؟

فقال: الحبّ شجرة أصلها الفكر، وعروقها الذِّكر، وأغصانها السَّهر، وأوراقها الأسقام.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن الحبّ هو أخطر حدث في حياة الإنسان، وذلك لأنه يمسُّ صميم شخصيته وجوهره.

لكن السؤال الملحّ: هل يجوز أن نتحدث عن الحبّ؟!

والجواب الجاهز لدىٰ كثيرٍ ممن يحملون ديكورات التدّين أنه: لا يجوز الحديث عن الحبّ أبداً، لماذا؟ إنه رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه!!

لكن العارفين بالله، والمطلعين علىٰ قضايا الشريعة يقولون: ومن قال إن الحب والحديث عنه حرام؟

إذن: والذي يحلّ المشكلة هو العودة إلى الأصول، والتي هي القرآن والسنّة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1] ولو عدنا إلىٰ كتاب الله تعالىٰ لوجدنا حديثاً مستفيضاً عن الحبّ، وذلك في أكثر من ثمانين موضعاً، مثال ذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) المائدة: ٥٤.

شعيرة الحب في القرآن الكريم

لكن المحققين من العلماء قالوا[1]: لقد وردت كلمة الحب في القرآن الكريم على أربعة أوجه ، وهي: الإيثار والمودّة والقلّة والنفع.

فوجه منها: الحب بمعنى الاستحباب والإيثار:

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾[2] يعني: آثرت..

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3] يعني: يؤثرون من هاجر إليهم ، وكان ذلك أثناء هجرة المسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة...

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5]. أي: آثروا الكفر على الإيمان...

وقال جلّ جلاله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[6].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[7].

---

(١) كما في كتاب: إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للمفسر الحسين الدامغاني: ١١٥.
(٢) ص: ٣٢.
(٣) الحشر: ٩.
(٤) إبراهيم: ٣.
(٥) التوبة: ٢٣.
(٦) النحل: ١٠٧.
(٧) فصلت: ١٧.

قال الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ) في بيان المراد من هذه الآية الكريمة: قوله عز وجل ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدّي وابن زيد: بيّنا لهم، وقال الثوري: دعوناهم ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بصرّناهم وبيّنا لهم ووضحنا لهم الحق علىٰ لسان نبيهم صالح عليه السلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله تعالىٰ التي جعلها آية وعلامة علىٰ صدق نبيهم. ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً. ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: من التكذيب والجحود...[(١)].

والوجه الثاني: الحب بمعنىٰ المودّة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)].

وفي التعليق علىٰ هذه الآية قال المرحوم محمد متولي شعراوي:

ولنا أن نعرف أن كل ﴿ قُلْ ﴾ إنما جاءت في القرآن كدليل علىٰ أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول ﷺ عن ربه، بلاغ للأمر وللمأمور به، وإن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول ذلك لكان قد أدىٰ (المأمور به)، ولم يؤدّ الأمر بتمامه، لماذا؟

لأن الأمر في ﴿ قُلْ ﴾، والمأمور به ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ وكأن الرسول ﷺ في كل بلاغ عن الله بدأ بـ ﴿ قُلْ ﴾ إنما يبلغ (الأمر) ويبلغ (المأمور به)، مما يدلّ علىٰ أنه مبلغّ عن الله في كل ما بلغه من الله.

وإن الذين يقولون: يجب أن تحذف ﴿ قُلْ ﴾ من القرآن، وبدلاً من أن نقول: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[(٣)] فلننطقها: (الله أحد)، لهؤلاء نقول: إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدّىٰ (المأمور به) ولم يؤدّ (الأمر).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٦٧.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) الصمد: ١.

إن الحق يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] هذه الآية تدلّ علىٰ ماذا؟

إنهم لابدّ قد ادّعوا أنهم يحبّون الله، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله ﷺ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئاً، واتباع التكليف شيئاً آخر، والله سبحانه وتعالىٰ له علىٰ خلقه إيجاد، وإمداد، وتلك نعمة، ولله على خلقه فضل التكليف، لأن التكليف إن عاد علىٰ المكلَّف (بفتح الكاف وتشديد اللام) ولم يعد منه شيء علىٰ المكلِّف (بكسر الكاف) فهذه نعمة من المكلِّف. إن الحق سبحانه لا يحتاج إلىٰ أحد ولا من أحد، إن الحق سبحانه عندما كلّفنا، إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان، وقد ضربنا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ بالآلة المصنوعة بأيدي البشر، فالمهندس الذي صمّمها يضع لها قانون صيانة ما، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها، وهي تتلخص في (افعل كذا) و(لا تفعل كذا)، ويختار لهذه الآلة مكاناً محدّداً، وأسلوباً منظماً للاستخدام.

إذاً: فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما وطبعها في كراسة صغيرة، هي لفائدة المنتفع بالصنعة، هذا في مجال الصنعة البشرية، فما بالنا بصنعة الله عز وجل؟

إن لله إيجاداً للإنسان، ولله إمداداً للإنسان، ولله تكليفاً للإنسان، والحق قد جعل التكليف في خدمة الإيجاد والإمداد.

إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة في (افعل) و(لا تفعل) لفسد علينا الإيجاد والإمداد، وإن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبّه للإيجاد والإمداد؛ فليعرف العبد فضل ربه عليه من ناحية قبول التكليف، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفه بالتكاليف الإيمانية. إنك قد تحب الله، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله، وأن يحبك الله، وإن التكليف قد يبدو شاقاً عليك فتهمل التكليف، لذلك نقول لك: لا يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده، لأنك بذلك تكون قد أهملت نعمة تكليفه التي تعود عليك بالخير، وإن نعمة التكليف تعود عليك

---

(١) آل عمران: ٣١.

بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عباداً يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدّهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف علىٰ أن يعرف العبد نعمته ـ سبحانه ـ في التكليف ، فالله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف .

ونحن في مجالنا البشري نرىٰ إنساناً يحب إنساناً آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادله العاطفة ، والمتنبي يقول :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيباً غير محبوب

إن المتنبي يستعيذ أن يحبّ واحداً لا يبادله الحب ، فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه إيجاداً وإمداداً ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أو لا يقدرون علىٰ حمل نفوسهم علىٰ أداء التكليف ، لهؤلاء نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصالحه ، ولكنه كلفكم لصالحكم ، لأن التكليف لا يقلّ عن الإيجاد والإمداد .

لماذا؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب ـ كما نعرف ـ هو ودادة القلب ، وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة إلى الله ، فإننا نرىٰ آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا ، وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلىٰ الله فإنها تكون في الطاعة ، وإن الحب الذي هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القالب ، وعلىٰ الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها ، طاعة منه وحباً لله ، ليتلقىٰ محبة الله له بآثارها ، من عفو ورحمة ورضا .

والحب المطلوب شرعاً يختلف عن الحب بمفهومه الضّيق ، أقول ذلك لنعلم جميعاً ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططاً ، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة ، وأن الحب المراد لله في التكليف هو الحب العقلي ، ولا بدّ أن نفرّق بين الحب العقلي والحب العاطفي ، فالعاطفي لا يقنّن له ، لا أقول لك : (عليك أن تحب فلاناً حباً عاطفياً) لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له ، فالإنسان يحبّ ابنه حتىٰ ولو كان قليل الذكاء ، أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء بعقله .

شجرة الطيب ـ القرآن الكريم

والإنسان حين يرىٰ ابن جاره أو حتىٰ ابن عدوه ، وهو متفّوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة ، فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، فهناك إذاً فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائماً يقع في إطار المقدور عليه وهو حبّ العقل ، ومع حبّ العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتي وكيف . . . لو لم أعتنق هذا الدين وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم؟ إن هذا حديث العقل وحبّ العقل .

وقد يتسامىٰ الحب فيصير بالعاطفة أيضاً ، لكن المكلف به هو حبّ العقل ، وليس الحب العاطفي ، ولذلك يجب أن نفطن إلىٰ ما روي عن عمر رضي الله عنه حينما قال رسول الله ﷺ ـ كما في صحيح البخاري وغيره ـ : «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1] .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس؟! إنني أحبك أكثر من مالي ، أو من ولدي ، إنما من نفسي؟!

ففي النفس منها شيء ، وهكذا نرىٰ صدق الأداء الإيماني من عمر رضي الله عنه وكررها النبي ﷺ ثانياً ، وثالثاً ، فعرف سيدنا عمر أنها قد أصبحت تكليفاً وعرف أنها لابدّ أن تكون من الحبّ المقدور عليه ، وهو حبّ العقل ، وليس حبّ العاطفة ، وهنا قال سيدنا عمر : الآن يا رسول الله؟

فقال الرسول ﷺ : «الآن يا عمر» أي : كمل إيمانك الآن ، أي إن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلي .

ونريد هنا أن نضرب مثلاً حتىٰ لا تقف هذه المسألة عقبة في القلوب أو العقول ، نقول ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ : إن الإنسان ينظر إلىٰ الدواء المرّ طعماً ويسأل نفسه : هل أحبّه أو لا؟

إن الإنسان يحبّ هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته .

إذاً فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك ، وإن كانت

---

(١) صحيح البخاري : ١/ ٥٥ ، صحيح مسلم : (٤٤) ، سنن النسائي : ٨/ ١١٤ .

نفسك تعافه، وعندما تتضّح لك حدود نفع الشيء فأنت تحبّه بعاطفتك؛ إذاً: فالمطلوب للتكليف الإيماني (الحب العقلي) الذي يتسامىٰ بعد ذلك ليصبح (حباً عاطفياً)، وهذا يكون في قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] وهذا الحبّ ليس دعوىٰ.

إن الإنسان منا عندما يدّعي أنه يحب إنساناً آخر، فكل ما يتصل به يكون محبوباً، ألم يقل الشاعر: وكل ما يفعل المحبوب محبوب؟

فإن كنتم تحبّون رسول الله ﷺ، فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية، ولنلتفت إلىٰ الفرق بين (اتبعني) و(استمع لي):

إن الاتباع لا يكون إلا في السلوك، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترىٰ ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ، وأن تفعل مثله، أما إذا كنت تدّعي هذا الحبّ، ولا تفعل فعل رسول الله فهذا عدم صدق في الحب.

إن دليل صدقكم في الحب المدعىٰ منكم أن تتبعوا رسول الله ﷺ، فإن اتبعنا رسول الله ﷺ نكون قد أخذنا التكليف من الله علىٰ أنه نعمة، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقّة علينا، فيحّبنا الله، لأننا آثرنا تكليفه علىٰ المشقّة في التكليف.

إن فهم هذه الآية يقتضي أن نعرف أن الحق ينبّهنا، فكأنه يقول لنا: أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد، وبعد ذلك وقفتم في التكليف لأنه ثقيل عليكم، وهنا نقول: (انظروا إلىٰ التكليف؛ أهو لصالح من كَلَّفَ أم هو لصالح من تلقىٰ التكليف؟ إنه لصالح المكلَّف، أي الذي تلّقىٰ التكاليف.

وهكذا يجب أن نضمّ التكليف للنّعم فتصبح النعم هي (نعم الإيجاد) و(الإمداد) و(التكليف)، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد، فهذا يقضي أن تحبه أيضاً للتكليف، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف، وما دمت أنت قد عبَّرت عن صدق عواطفك بحبك لله، فلا بدّ أن يحبك الله، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدّم ولا يؤخّر، لكن حب الله لك يقدّم ويؤخّر.

إن قول الحق سبحانه وتعالىٰ فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي إن الرسول ﷺ المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم

---

(١) آل عمران: ٣١.

يكتم شيئاً مما أُمِرَ بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقاً بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ إن مسألة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعي ، فمن لم يكن في باله هذا الأمر ، وهو حب الله ، واتباع الرسول ﷺ ، فعليه أن يعرف أن عليه مسؤولية أن يبدأ في هذه المسألة فوراً ويتبع الرسول وينفّذ التكليف الإيماني ، وسيغفر الله له ما قد سبق ، وأي ذنوب يغفرها الله هنا؟

إنها الذنوب التي فرّ منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فجاء الرسول ﷺ بالحكم فيها .

وهكذا نعرف ونتيقّنُ أنَّ من عدالة الله سبحانه أنه لا يعاقب أحداً علىٰ ذنب سابق ما دام قد قبل العبدُ أن ينفذ التكليف الإيماني ، وإن الذين أبلغهم رسول الله ﷺ كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلىٰ ما أعلنه الرسول لهم ، وإن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغاً ، وقد جاء البلاغ ، ولذلك يغفر الله الذنوب السّابقة علىٰ البلاغ .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : إننا نعلم أن المغفرة من الله ، والرحمة منه أيضاً . . .[1] .

والوجه الثالث : الحبّ بمعنىٰ القلّة :

كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2] .

---

(١) تفسير الشعراوي : ٣/ ١٤١٨ ـ ١٤٢٢ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

وقوله سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، المحتاج الفقير العاجز عن الكسب، واليتيم الحزين الذي فقد أباه وعائلته، والأسير المقيد المحبوس، أو المملوك، سواء أكان من أهل الإيمان أم من المشركين، وخصّ الطعام بالذكر لكونه إنقاذاً للحياة، وإصلاحاً للإنسان، وإحساناً لاينسى.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تنبيه علىٰ ما ينبغي أن يكون عليه المُطْعِم، بل كل عامل، من إخلاص عمله لله.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[3].

وقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[4].

وبما أن تمام الطاعة لا يكون إلا بالإخلاص وقرن النية بالعمل، فإنَّ الله تعالىٰ ذكر النية بعد تلك الأعمال فقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: إنما قَصْدُنَا من هذا الإطعام هو ابتغاء رضوان الله وحده، ورجاء ثوابه، دون منّ عليكم ولا ثناء من الناس، ولا توقّع مكافأة تنقص الأجر، ولا طلب مجازاة منكم، ولا إرادة شكر منكم لنا، بل هو خالص لوجه الله تعالى.

وهذا ـ أي طلب رضا الله عنهم ـ هو الهدف الأول، ثم أعقبه بالهدف الثاني

---

(١) الإنسان: ٨ ـ ٩.
(٢) البلد: ١١ ـ ١٦.
(٣) البقرة: ١٧٧.
(٤) آل عمران: ٩٢.

وهو خوف يوم القيامة وأهوالها ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

أي: إننا مع طلب رضوان الله نخاف من أهوال يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدّته ، صعب شديد ، ووصف اليوم بالعبوس مجاز ، وُصِفَ بصفة أهله ، أو تشبيها في ضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل ، والقمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله بلاء. . .[2].

والوجه الرابع: الحبّ بمعنىٰ النفع:

كما في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ﴾ أي: وأزيدكم علىٰ ذلك زيادةً تحبونها ، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفلّ الله بنصركم ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[5].

وقوله تعالى: (﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل ، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾)[6].

* * *

حتىٰ في مجالات القصص ، نجد أن القرآن الكريم ركزّ علىٰ قصص الحبّ. وفي ذلك دليل واضح علىٰ جواز ذلك الرابط المقدّس ، مثال ذلك قصة يوسف عليه السلام ، حيث يصوّر القرآن شخصية يوسف علىٰ أنه الشاب العفيف الطاهر ، الذي استطاع مقاومة الشيطان ووساوسه. . .

---

(١) الإنسان: ١٠.
(٢) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي: ٢٩/ ٢٩٠.
(٣) الصف: ١٣.
(٤) محمد: ٧.
(٥) الحج: ٤٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير: ٦/ ٦٥٠.

بينما تسللّ حبّه إلىٰ قلب امرأة العزيز ، فشغفت به ، وعلىٰ حدّ تعبير الإمام الغزالي رحمه الله : (. . . ألا ترىٰ أن زليخا بلغ بها من محبة يوسف عليه السلام أن ذهب مالها وجمالها ، وكان لها من الجواهر والقلائد وِقْر (أي حمل) سبعين جملاً ، وقد أنفقتها كلها في محبة يوسف ، وقد نسيت كل شيء سواه)[1] .

وصدق الله عندما قال : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]

ومثال آخر : ما حدث مع نبي الله موسىٰ عليه السلام ، حيث غادر مصر إلىٰ (مَدْين) ، وفي الطريق وجد نفسه أمام فتاتين ، فتقدّم منهما وعرض عليهما مساعدته ، ولحسن سلوكه وورعه وأمانته ، أُعجبت به إحدىٰ الفتاتين ـ وهي ابنة النبي شعيب عليه السلام ـ ، فطلبت من والدها أن يستأجره ، فعرض شعيب علىٰ موسىٰ عليهما السلام الزواج من ابنته التي أحبّته ، ووافق موسىٰ عليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[3] .

إضافة إلىٰ قصص قرآنية تتحدث عن جانب الحب والألفة ، كما في حكاية

---

(١) مكاشفة القلوب : ٢٧ .

(٢) يوسف : ٢٣ ـ ٢٥ .

(٣) القصص : ٢٣ ـ ٢٧ .

نبي الله سليمان مع ملكة سبأ (بلقيس) . . . وغير ذلك . . .

ولم لا؟ والقرآن عندما حدثنا عن الجنة ونعيمها ، جعل منها المكان الذي تشيع فيه المحبة والألفة ، حيث الجوّ المهيّؤ لذلك ، فتحت الأشجار. . . وحول ضفاف الأنهار . . . ومع أطيب الأطعمة وألذّ الأشربة ، مع ذلك كله هناك الحور العين . . . وقد وصف البيان الإلهي الحور العين بأوصاف رائعة جداً؛ فذكر زينتهنّ وحليّهن ونحو ذلك ، ويكفي أن نقف مع واحدة من اللوحات القرآنية التي تصف أجواء الجنة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾(١) .

* * *

وقد جسّدت حياة الرسول ﷺ المودّة والألفة والحبّ خير تجسيد ، كيف لا؟ وقد وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢) .

واشتق سبحانه اسمين من أسمائه ، ووصف بهما رسوله صلوات الله عليه ، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) .

أما عن علاقاته مع زوجاته ، ففي ذلك حكايات وقصص لا مثيل لها . . . ،

---

(١) الواقعة: ١٠ ـ ٤٠ .
(٢) آل عمران: ١٥٩ .
(٣) التوبة: ١٢٨ .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطِّيُب وجُعلت قرّة عيني في الصلاة»[1].

وفي جَمْعِهِ صلوات الله عليه لهذه الأمور الثلاثةِ حكم وعظات، فالطيّب هو ما تهفو النفس إليه، والصلاة هي التي تعطي الإنسان الهدوء، والطمأنينة والرضا، والمرأة الصالحة هي كما وصفها الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2] وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾[3].

لذلك، ومع العدد الكبير من النساء اللاتي كنّ عنده صلوات الله عليه! إلا أنه كان يعدل بينهن في القَسَمْ:

فعن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة رضي الله عنها: يا ابن أختي! كان رسول الله ﷺ لا يفضّل بعضنا علىٰ بعضٍ في القسم، من مكثه عندنا، وكان قلَّ يومٌ إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأةٍ من غير مسيسٍ حتىٰ يبلغ إلىٰ التي هو يومُها فيبيت عندها[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأةٍ منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ[5].

ولو رحنا نتأمل في جوانب سيرته ﷺ، لوجدنا حُسن معاملته أهله وكريم عشرته، من ذلك:

---

(١) المسند للإمام أحمد: ٣/ ٢٨٥.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) الروم: ٢١.
(٤) سنن أبي داود: ٢/ ٦٠١، سنن البيهقي: ٧/ ٣٠٠.
(٥) سنن البيهقي: ٧/ ٢٩٦، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٨/ ١٦٩.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخيارهم خيارهم لنسائهم»[2].

وروىٰ جابر بن عبد الله أن عائشة رضي الله عنها، في حجَّة النبي ﷺ أهلَّت بعمرةٍ ـ وساق الحديث ـ وفيه قال:

وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هَويَتِ الشيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبد الرحمن بن أبي بكر فأهَّلت بعُمرة من التنعيم...[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت: كيف كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟

قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلىٰ الصلاة[4] وفي رواية ثانية أنها قالت: كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بسّاماً...[5].

وعن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر رضي الله عنه علىٰ النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: ألا أراك ترفعين صوتك علىٰ رسول الله ﷺ، فجعل النبي يحجُزُه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيتني أنقذتُكِ من الرجل؟».

قال: فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن علىٰ رسول الله ﷺ فوجدهما قد

---

(١) سنن ابن ماجه: ١/ ٦٣٦.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٥٠.
(٣) صحيح مسلم: ٢/ ٨٨٢.
(٤) صحيح البخاري: ٨/ ١٧.
(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ٣٦٥.

اصطلحا ، فقال لهما: أدخلاني في سِلْمكما كما أدخلتماني في حربكما ، فقال النبي ﷺ: «قد فعلنا ، قد فعلنا»[1].

أجل!

تحدثنا السيرة الطاهرة عن كيفية مباسطة الرسول ﷺ أهله: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله وعندي جاريتان تغنّيان بغناء بُعاث ، فاضطجع علىٰ الفراش وحوَّل وجهه ، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله وقال: «دعْهُما».

فلمّا غَفَلَ غمزتُهما فخرجتا ، وكان يوم عيدٍ يلعب فيه السُّودان بالدَّرقِ والحراب ، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: «تشتهين تنظرين؟».

فقلت: نعم.

فأقامني وراءه ، خدّي على خّده وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة» حتىٰ إذا ما مللتُ قال: حسُبكِ؟

قلت: نعم.

قال: «فاذهبي...»[2].

وهناك ما هو أبعد من ذلك كِله!!

فعن عائشة رضي الله عنها ، أنها أنكَحَتْ ذات قرابةٍ لها من الأنصار ، فجاء النبي ﷺ فقال: «أهديتم الفتاة».

قالت: نعم.

قال: فأرسلتم من تغنّي؟

قالت: لا.

---

(١) سنن أبي داود: ٥/ ٢٧١ ، مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ٤٧ ، صحيح مسلم: ٢/ ٦٠٧.

قال: «إن الأنصار قومٌ فيهم غزل فلو أرسلتم من يقول: «أتيناكم أتيناكم، فحيانّا وحيّاكم...»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيتُ النبي ﷺ بحريرةٍ[2] قد طبختها له، فقلت لسودة رضي الله عنها ـ والنبيّ بيني وبينها ـ: كُلي، فأبَتْ، فقلتُ: لتُأكلين أو لألطخنّ وجهك، فأبت، فوضَعتُ يدي في الحريرة فطليتُ وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: «الطخي وجهها» فضحك النبي ﷺ لها، فمَّر عمر فقال: يا عبد الله، يا عبد الله؛ فظنّ أنه سيدخل فقال: قوما فاغسلا وجوهكما».

قالت عائشة: فمازلتُ أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ...[3].

إذاً:

كيف استطاع النبي ﷺ أن يتعايش مع نسائه، وفيهنّ العربية وغير العربية، وفيهنّ الشابة الصغيرة والمسنّة والأرملة و...؟

إنهاالأخلاق الحميدة، وهي العنوان العريض: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[5].

وهكذا، جاءت وصايا الرسول ﷺ بالنساء كأفضل ما يكون الحال:

فهو يوصي أن يقف الرجل مع زوجته إذا أصابها المرض، ليكون لها عوناً علىٰ مصائب الدهر، فيساعدها في أمور البيت، وشؤون الأولاد، وأن يظهر كل ما يستطيع من لطف أمام هذه الحالة:

يروي البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون ـ أي يتكلمون كثيراً ـ في قول

---

(١) سنن البيهقي: ٧/ ٢٨٨، مسند أحمد: ٣/ ٣٩١.
(٢) وهي الدقيق الذي يُطبخ بلبن: [لسان العرب: ٢/ ٨٣١].
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي: ٤/ ٣١٥.
(٤) القلم: ٤.
(٥) آل عمران: ١٥٩.

أصحاب الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، ويريبني في وجعي أني لا أعرف في رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي . .[1] .

ويوصي الرسول ﷺ الرجال بآداب تتعلّق بدخول البيوت ومعاملة النساء؛ من ذلك ألاّ يفاجىء الرجل زوجته ، وذلك لكي لا يرىٰ منها ما يكره .

ومنها أن يتعجّل بالعودة إلىٰ بيته ، فإن وصل إلىٰ بلدته ليلاً ، فعليه أن يتمهلّ حتىٰ تعلم زوجته بقدومه :

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : «إذا قضىٰ أحدكم حجه فليعجل الرجوع إلىٰ أهله ، فإنه أعظم لأجره»[2] .

وروىٰ جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قفلنا ـ أي رجعنا ـ مع النبي ﷺ من غزوة ، فلما ذهبنا لندخل المدينة ، قال : «أمهلوا حتىٰ تدخلوا ليلاً ـ أي عشاء ـ ، لكي تمشط الشَّعثة وتستحدَّ المغيبة»[3] .

وكان صلوات الله عليه إذا أراد سفراً أخذ معه إحداهن :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ، فأيّتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله[4] .

وكان صلوات الله عليه يوصي حادي الجمال أن يخفّف السّير رفقاً بهنّ :

فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في سفر ، وكان غلام يحدو بهن ـ أي ببعض أمهات المؤمنين ـ يُقال له (أنجشة) ، فقال النبي ﷺ : «رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير»[5] .

وكان صلوات الله عليه إذا زارته واحدة منهن وهو في اعتكافه بالمسجد خرج معها ليودّعها :

فعن صفية رضي الله عنها قالت : كان النبي في المسجد وعنده أزواجه

---

(١) صحيح مسلم : (٢٧٧٠) .
(٢) المستدرك للحاكم : ١/ ٧٥٣ .
(٣) صحيح مسلم : ٤/ ١٣٩ .
(٤) صحيح مسلم : ٨/ ١١٢ .
(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ١٣/ ١٦١ .

فَرُحْن ، قال لي : «لا تعجلي حتىٰ أنصرف معك» وكان في بيتي في دار أسامة ، فخرج معي[1] .

ويوصي صلوات الله عليه الرجال بأن يُحسنوا معاشرة النساء :

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتىٰ اللقمة ترفعها إلىٰ في امرأتك»[2] .

وكان صلوات الله عليه يلاحظ رحمة قلوب النساء ورقّة شعورهن . . . :

فعن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه قال : قدمت بسبي من البحرين فصُفُّوا ، فقام رسول الله فنظر إليهم فإذا امرأة تبكي ، فقال : «ما يبكيك؟»

قالت : بيع ابني في عبس ، فقال النبي لي : «يا أبا أسيد! لتركبنّ فلتجيئنّ به كما بعت بالثمن»[3] .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من فرّق بين الولد وأمه فرّق الله بينه وبين أحبّته يوم القيامة»[4]

ويوصي صلوات الله عليه الرجال بالرحمة والمودة ، والترفّق ، فيقول : «لا يفرك ـ لا يبغض ـ مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»[5] .

وكان صلوات الله عليه يترفّق مع كل النساء : فعن أنس رضي الله عنه : أن امرأةً كان في عقلها شيء ، فقالت : يا رسول الله! إن لي إليك حاجة .

فقال : «يا أم فلان! انظري أي السكك شئت ، حتىٰ أقضي لك حاجتك»[6] .

---

(١) صحيح مسلم : ٧/ ٨ .
(٢) فتح الباري : ٧/ ٤٤ .
(٣) سنن البيهقي : ٩/ ١٢٦ .
(٤) سنن البيهقي : ٩/ ١٢٧ .
(٥) صحيح مسلم : ٤/ ١٧٨ .
(٦) سنن النسائي : ٤/ ٤٠ .

وروىٰ أبو أمامة رضي الله عنه قال:

كانت امرأة ترافث الرجال، وكانت بذيئةً، فمرّت بالنبي ﷺ وهو يأكل ثريداً علىٰ طربال ـ مكان مرتفع ـ فقالت:

انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كما يأكل العبد، فقال النبي ﷺ: «وأي عبدٍ أعبد منيّ؟»

قالت: ويأكل ولا يطعمني.

قال: «فكلي».

قالت: ناولني بيدك، فناولها، فقالت: أطعمني مما في فيك، فأعطاها، فأكلت، فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتىٰ ماتت...[1].

وكان صلوات الله عليه يمازح أهله ويباسطهن، وهذا من مكارم الأخلاق وفضائلها، ومن دونِهِ تتحول الحياة إلىٰ (روتين) و(رتابة) وملل:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدُن، فقال للناس: «تقدّموا».

فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتىٰ أسابقكِ» فسابقتُه، فسبقته، فسكت عني، حتىٰ إذا حملتُ اللحم وبَدُنْتُ ونسيتُ، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدّموا»، ثم قال: «تعالي حتىٰ أسابقك» فسابقتُه فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: «هذه بتلك»[2].

إنها وصايا نبويّة، لو طبقّها المجتمع لعاش حياةً هادئة، لا تسمع فيها لاغية؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهنّ خُلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ٨/ ٣١٢.

(٢) مسند أحمد: ٦/ ٣٩، سنن أبي داود: ٣/ ٦٦، سنن ابن ماجة: ١/ ٦٣٦.

لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً»(١).

وحتىٰ بعد وفاة الزوجة ، فالرسول يوصي الرجل بأن يُحسن إلىٰ صديقاتها وقريباتها . . . وأن يُحسن ذكرها :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة علىٰ رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك . فقال : «اللهم هالة بنت خويلد» .

فغرتُ ، فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها؟ ! »(٢) .

وهكذا ، كان الحبّ هو المظلّة التي أظلت البيت النبوي ، فهو صلوات الله عليه يعاون الزوجات في أمور البيت ، ويخفّف عنهنَّ المصاعب والمتاعب ، ويمازحهّن ، ويُظهر حبّه لهنّ . . . وليس في ذلك أيّ انتقاصٍ لكبرياء الرجل . . . وليس في ذلك انتقاصٌ لرجولة الرجل . . . ، إنما في ذلك الأسوة والقدوة للرجال والنساء ، كي يكون الطرفان على مصاعب الدهر ومآسيه ، لا أن يكون الدهر والنساء علىٰ الرجال! أو الدهر والرجال علىٰ النساء! ! .

كان إلىٰ جوار رسول الله ﷺ رجل فارسيّ طيّب المرق ، فصنع ذات يومٍ طعاماً ، ثم جاء يدعو النبي إلىٰ الطعام ، فقال النبي ﷺ : «وهذه ـ يقصد السيدة عائشة ـ؟ » .

فقال : لا .

فقال الرسول ﷺ : «لا» فعاد يدعوه .

فقال الرسول ﷺ : «وهذه؟»

فقال : لا .

فقال الرسول ﷺ : «لا» ، ثم عاد يدعوه .

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعيني : ٢٠/ ١٦٦ .

(٢) صحيح مسلم : ٤/ ١٨٨٨ ، رقمه (٢٤٣٧) .

فقال الرسول ﷺ: وهذه؟

قال: نعم.

فقاما يتدافعان حتىٰ أتيا منزله!![1]

حتىٰ حين حضرته الوفاة ﷺ، كان يبرز جانب الحبّ والمودّة: فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه، يقول: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟»

يريد يوم عائشة ـ لحبّه الشديد لها ـ فأذن له أزواجه بأن يكون حيث شاء، فكان في حجرتها، حتىٰ مات عندها...[2].

وصدق الله حين وصف الحبيب محمداً بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

* * *

وهكذا تبرز دواعي الحبّ في سيرة الصحابة الأكارم، حيث أحبّوا رسول الله ﷺ حبّاً لا مثيل له، من ذلك مثلاً:

أخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنك لأحبّ إليّ من نفسي، وإنك لأحبّ إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتىٰ آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعتَ مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت ألاّ أراك، فلم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً حتىٰ نزل جبريل عليه

---

(١) صحيح مسلم: ٦/ ١١٦.
(٢) فتح الباري: ٩/ ٢١٠.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) النساء: ٦٩.

السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1][2].

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أصابت نبي الله ﷺ خصاصة[3] فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فخرج يلتمس عملاً يصيب فيه شيئاً ليُغيث به النبي، فأتىٰ بستاناً لرجل من اليهود فاستسقىٰ له سبعة عشر دلواً، على كل دلو تمرة، فخيّره اليهودي علىٰ تمره فأخذ سبع عشرة عجوة، فجاء بها إلىٰ النبي ﷺ، فقال: «من أين لك هذا يا أبا الحسين؟».

قال: بلغني ما بك من الخصاصة يا نبيّ الله، فخرجت ألتمس لك عملاً لأصيب لك طعاماً.

قال: «حملك علىٰ هذا حبُّ الله ورسوله؟»

قال: نعم يا نبي الله.

قال: «ما من عبدٍ يحبّ الله ورسوله إلا الفقر أسرع إليه من جرية السيل علىٰ وجهه، ومن أحبّ الله ورسوله فليعدَّ للبلاء تجفافاً[4] وإنما يغنى[5]

وأخرج الطبراني عن حُصين بن وَحْوَح الأنصاري أن طلحة بن البراء رضي الله عنهما لما لقي النبي ﷺ فجعل يلصق برسول الله ويقبِّل قدميه.

قال: يا رسول الله! مرني بما أحببت ولا أعصي لك أمراً.

فعجب لذلك النبي ﷺ وهو غلام، فقال له عند ذلك: «اذهب فاقتل أباك».

فخرج مولّياً ليفعل، فدعاه فقال له: «أقلَّ فإني لم أُبعث بقطيعة الرّحم».

فمرض طلحة بعد ذلك، فأتاه النبي صلوات الله عليه يعوده في الشتاء في

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ٧/ ٨.

(٢) أي: الفقر والحاجة إلىٰ الشيء.

(٣) المراد: أن يعدّ وقاية من البلاء.

(٤) كنز العمال للمتقي الهندي: ٣/ ٣٢١، السنن الكبرى للبيهقي / ١١٧٤٤/.

(٥) الإصابة: ٢/ ٢٢٧، مجمع الزوائد: ٩/ ٢٦٥.

برد وغيم ، فلما انصرف قال لأهله : «لا أرىٰ طلحة إلاَّ قد حدث فيه الموت فآذنوني به حتىٰ أشهده وأصلِّي عليه وعجّلوه» .

فلم يبلغ النبي ﷺ بني سالم بن عوف حتىٰ توفي وجنّ عليه الليل ، فكان فيما قال طلحة : ادفنوني وألحقوني بربي عز وجل ، ولا تدعوا رسول الله ﷺ فإني أخاف عليه اليهود أن يصاب في سببي .

فأخبر النبي ﷺ حين أصبح ، فجاء حتىٰ وقف على قبره ، فصفّ الناس معه ، ثم رفع يديه فقال : «اللهم الق طلحة تضحك إليه ويضحك إليك»[(١)] .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

لما أُسر الأسارىٰ يوم بدر أسر العباس رضي الله عنه فيمن أُسر ، أسره رجل من الأنصار ، قال : وقد أوعدتهُ الأنصار أن يقتلوه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» .

قال عمر رضي الله عنه : أفآتيهم؟

قال : «نعم» .

فأتىٰ عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس .

فقالوا : لا والله لا نرسله .

فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله رضىً؟

قالوا : فإن كان له رضى فخذه .

فأخذه عمر ، فلما صار في يده قال : يا عباس أسلم ، فوالله لئن تُسلم أحبّ إليَّ من أن يُسلم الخطّاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك»[(٢)] .

* * *

---

(١) البداية والنهاية : ٣/ ٢٩٨ .

وهكذا ينتقل الحبّ الصادق من جيل إلى جيل ، وبين عشيةٍ وضحاها ، يصبح المرّ حلواً ، والكدر صفاءً ، والسجن روضة ، والمرض نعمة ، والليل نهاراً ، وتسري في العروق نسائم الحبّ ، فلا قسوةَ ولا غلظة ، ولا موت. . . !

والعجب العجاب أن جميع المرضىٰ يتمنّون البُرء من الأمراض ، ويهرعون إلىٰ الصيادلة والأطباء ، إلا مرضىٰ الجن ، فيحبّون الوصول إلىٰ مزيدٍ من هذا المرض الذي هو الداء والدواء!!

لقد تفلّتت بعض الكلمات علىٰ ألسنة المحبين ، فصرّحوا ببعض العبارات التي لا تُفهم. . . وقد أوصلتهم تلك الكلمات إلى حبل المشانق ، ومع ذلك كانوا يتفاخرون قائلين: نحن في سعادة لو علم بها الملوك ، لجالدونا عليها بالسيوف!

الحبّ إكسير الحياة ، وروح الصحة ، وعلىٰ حدّ تعبير جلال الدين الرومي: إن الدم الذي يسيل في سبيل الحب ، لا يُشك في طهارته ، وبالتالي فشهيد الحب لا يحتاج إلىٰ الغسل ، ودماء الشهداء أفضل من الطهور. . .

والقرية التي خربت ، لا تُفرضُ عليها الجبايات والضرائب ، وكذلك المحبون ، لما عمرت قلوبهم بحبّ حبيبهم ، وخربت عن حبّ غيره ، صار لهم أحكام خاصة تليق بمقامهم. . .

إلىٰ أن يقول: إن الحبّ تراث أبينا آدم عليه السلام ، أما الدهاء: فهو بضاعة الشيطان!

إن الداهية الحكيم ، يعتمد علىٰ نفسه وعقله ، أما الحبّ فتفويض وتسليم ، إن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلىٰ الشاطىء ، وقد يغرق ، وإن الحب سفينة نوح عليه السلام ، لا خوف علىٰ راكبها من الغرق ، هذا وبحر الحياة هائج ، ليست السباحة فيه بالخطْب اليسير ، فخير للإنسان ـ والله ـ أن يأوي إلىٰ سفينة مأمونة من الغرق ، وهي سفينة الإيمان والحب،

ولقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة ، قد غرقوا في هذا البحر اللجيِّ . . .

ويدخل علىٰ الخط ـ خط الحب ـ العالم الورع (مالك بن دينار) ، فيؤكد علىٰ ضرورة البعد عن قساوة القلوب ، ويعدّ ذلك من غضب الله وسخطه ، فكان مما قاله :

خرج أهل الدنيا من الدنيا ، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها .

قالوا : وما هو يا أبا يحيىٰ؟

قال : معرفة الله تعالىٰ . . . . إلىٰ أن قال : نظرتُ في أصل كل إثم ، فلم أجده إلا حبَّ المال ، فمن ألقىٰ عنه حبّ المال ، فقد استراح . . .

ويبرز في هذا المضمار (سهل التُستري) ليدندن علىٰ حب الله وحب رسوله ﷺ ، ومن حكمه ومواعظه :

لا معينَ إلا الله ، ولا دليل إلا رسولُ الله ، ولا زاد إلا التقوىٰ ، ولا عمل إلا بالصبر عليه . . .

ثم . . . : أصول طريقنا ستة أشياء :

١ ـ التمسك بكتاب الله .

٢ ـ والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ .

٣ ـ وأكل الحلال .

٤ ـ وكف الأذىٰ .

٥ ـ واجتناب الآثام .

٦ ـ وأداء الحقوق .

ثم يؤكد علىٰ الوعظ والنصح ، فيقول :

استجلب حلاوة الزهد بقصر الأمل ، واقطع أسباب الطمع بصحة اليأس ، وتعرّض لرّقة القلب بمجالسة أهل الذكر ، واستجلب نور القلب بدوام الحذر ، واستفتح باب الحزن بطول الفكر ، وتزين لله بالصدق في كل الأحوال ، وإياك والتسويف فإنه يغرق فيه الهلكىٰ ، وإياك والغفلة فإن فيها

سواد القلب ، وإياك والتواني فيما لا عذر فيه فإنها ملجأ النادمين ، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار ، واستدم عظيم الشكر بخوف زوال النعم . . .

وأما التابعي (إبراهيم بن أدهم) فله مكانة مرموقة بين المحبيّن ، لذلك عندما تحلّق حوله بعض شيوخ زمانه ، قالوا له : عظنا بما ينفعنا يا أبا إسحاق ، فقال رحمه الله تعالى :

١ ـ إذا رأيتم الناس مشغولين بأمر الدنيا ، فاشتغلوا بأمر الآخرة .

٢ ـ وإذا اشتغلوا بتزيين ظواهرهم ، فاشتغلوا بتزيين بواطنكم .

٣ ـ وإذا اشتغلوا بعمارة البساتين والقصور ، فاشتغلوا بعمارة القبور .

٤ ـ وإذا اشتغلوا بعيوب الناس ، فاشتغلوا بعيوب أنفسكم .

٥ ـ وإذا اشتغلوا بخدمة المخلوقين ، فاشتغلوا بخدمة ربّ العالمين .

٦ ـ واتخذوا من هذه الدنيا زاداً يوصلكم إلىٰ الآخرة ، فإنما الدنيا مزرعة الآخرة .

وقيل له رحمه الله تعالى : ألا تجلس فتحدثنا مما فتح الله عليك؟

قال : حتىٰ أفرغ من ثلاث .

قيل : وما هي؟

قال : الأولىٰ ـ لما نزل الملك لتصويري في الرحم ، وقال : يا رب! أشقيّ أم سعيد؟ فما أدري ما كان الجواب؟

الثانية ـ حينما ينزل الملك لقبض روحي ، ويقول : يا رب! علىٰ الإيمان أم علىٰ الكفر؟ فما أدري ما يكون الجواب؟

الثالثة ـ لما يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وينادي المنادي : يا أهل الجنة! خلودٌ بلا موت ، ويا أهل النار خلودٌ بلا موت ، فلا أدري مع أي الفريقين؟!

أجل!

لقد قالها العارفون بالله ، الذين أشرقت قلوبهم بنور الله ، وبمحبة رسول الله ﷺ ، فترجموا الحبّ في كلمات ، وصنفّوه وقسّموه إلىٰ فروع وأقسام ، من ذلك مثلاً :

المحبة : لها بداية ، ووسط ، ونهاية .

فأول المحبة وبدايتها : ملازمة امتثال الأمر ، واجتناب النهي ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١) .

ووسطها : لهج اللسان بالذكر ، وتعلّق القلب بشهود المحبوب .

ونهايتها : لا تدرك بالعبارة ، ولا تلحقها الإشارة .

فلم يبق إلا اللهُ لا رب غيرُه حبيبٌ لقلبٍ غاب عن كل مقصد
هنيئاً لمن قد نال حبَّ حبيبه وخاض بترك الغير أكرمَ مورد
نعيم بلا حدّ لديه مجدّدٌ علىٰ عدد الأنفاس في كل مشهد

وقسّم العارفون بالله الشوق إلىٰ قسمين :

١ ـ **شوق العوام** : للحور والقصور ، ولنعيم الأشباح ، وهذا القسم نابع من قول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾(٢) .

٢ ـ **وشوق الخواص** : للشهود والحضور ، ولنعيم الأرواح ، وهذا نابعٌ من قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣) .

وما أجمل تلك الأبيات الشعرية الرائعة :

أحبّك حبّين حبَّ الهوىٰ وحبّاً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوىٰ فشغلي بذكرك عمّن سواكَا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحُجْبَ حتىٰ أراكَا

---

(١) آل عمران : ٣١ .
(٢) التوبة : ٧٢ .
(٣) التوبة : ٧٢ .

فـلا الحمـدُ فـي ذا ولا ذاك لـي ولكـن لـك الحمـدُ فـي ذا وذاكَـا

وأما كبار المتصوفة فقد رمزوا للحب برموز لا يدرك كنهها إلا الطبقة التي توازي طبقتهم ، ومع ذلك كانت الكلمات تغلبهم في بعض الأحيان فيتحدَّثون بصريح العبارة ودون تكلّف . من ذلك قول أبي عبد الله الرّاسي :

ولقـد أفـارقـه بـإظهـار الهـوىٰ عمـداً ليستـر سـرّه إعـلانـه
ولـربّمـا كتـم الهـوىٰ إظهـاره ولـربمـا فضـح الهـوىٰ كتمـانـه
عـيُّ المحبّ لـدىٰ الحبيب بـلاغـة ولـربمـا قتـل البليـغَ لسـانُـهُ
كـم قـد رأينـا قـاهـراً سلطـانَـهُ للنـاس ، ذلَّ لحبـه سلطـانُـه

أما العالم الكبير (الشبلي) فيكتم الهوى :

بـاح مجنـونُ عـامـرٍ بهـواه وكتمـتُ الهـوىٰ ففـزت لـوحـدي
فـإذا كـان فـي القيـامـة نـودي أيـن أهـلُ الهـوىٰ تقـدمـتُ وحـدي

وقال الإمام الجنيد : دفع لي السرّي السقطي رقعة وقال : هذه خير لك من سبمعائةٍ فضة ، ففتحتها ، فإذا فيها :

ولما ادَّعيتُ الحبّ قالت : كذبتني فمالي أرىٰ الأعضاء منك كواسيا
فما الحبّ حتىٰ يلصقَ الظهر بالحشا وتَـذْبُـلَ حتـىٰ لا تجيـبُ المنـاديـا
وتنحُـلَ حتـىٰ لا يُبَقِّـي لـك الهـوىٰ سـوىٰ مقلـةٍ تُبكـي بهـا وتُنـاجيـا

أما (رابعة العدوية) فهي التي حازت السَّبق في مشوار العشق الإلهي ، حيث أصبح ديدن حياتها الحديث مع الله سبحانه :

راحتـيّ يـا إخـوتـي فـي خلـوتـي وحبيبـي دائمـاً فـي حضـرتـي
لـم أجـد لـي عـن هـواه عـوضـاً وهـواه فـي البـرايـا محنتـي
حيثمـا كنـت، أشـاهـدْ حُسنـه فهـو محـراب إليـه قبلتـي
يـا طبيـب القلـب يـا كـلَّ المنـىٰ جُـدْ بـوصـلٍ منـك يشفـي مهجتـي
يـا سـروري وحيـاتـي دائمـاً نشـأتـي منـك وأيضـاً نشـوتـي
قـد هجـرت الخلـق جمعـاً أرتجـي منـكَ وصـلاً فهـو أقصـىٰ منيتـي

وفي قصائد سلطان العاشقين (ابن الفارض) أوصاف وأنساب لايفهمها إلا من لزم ذلك الخط وعشقه.

فتارةً يتحدث عن وصف الخمر، وتارةً ثانية يتحدث عن الجمال المحصن، وثالثة يصرّح بما يريد، ورابعة ترىٰ الغموض في كل أبياته، وهكذا...

ففي أواخر قصيدته اليائية مثلاً يقول:

فثـرائـي مـن ثـراه كـان لـو ... عـاد لـي عفّـرت فيـه وجنتـيّ
حـيَّ رَبْعَـيَّ رَبْـعُ الحيـا ... بـأبـي جيـرتنـا فيـه وَبِـيّ
أيُّ عيـش مـرّ لـي فـي ظلّـه ... أسفـي إذْ صـار حظـي منـذ أيّ
أي ليَـالِ الـوصـل هـل مـن عـودة ... ومـن التعليـل قـولُ الصـبِّ أيّ
وبـأيّ الطُّـرْقِ أرجـو رجعهـا ... ربمـا أقضـي ومـا أدري بـأيّ
ذهـب العمـر ضيـاعـاً وانقضىٰ ... بـاطـلاً إذ لـم أفـز منكـم بشـيّ
غيـرِ مـا أوليـت مـن عقـدي ولا ... عثـرة المبعـوث حقـاً مـن قُصـيّ

وبرز الحبّ في فن المدائح النبوية. حتىٰ أصبح فناً مستقلاً تردّد علىٰ ألسنة المؤمنين في كل مكان، لكن اختلفت أشكال هذا الفن وتنوعت، فالشاعر (الصرصري) نهج علىٰ التغزّل بذات الرسول ﷺ، كما في قوله:

أوَجُهـك أم ضـوء الصبـاح تبلجـا ... أم البدر في برج الكمال محا الدجىٰ
أم الشمسُ يومَ الصحو في برج سَعدها ... وفـرعُـك أم ليـلُ المحـب إذا دجـا
وبـرقٌ سـرىٰ أم نـورُ ثغـرك بـاسمـاً ... ونشـرُك أم مسـكٌ ذكـيٌّ تـأرّجـا
أتتكَ جنودُ الحسن طوعاً بأسرها ... فصرت مليكاً في الجمال متوّجا

ويعتبر (كعب بن زهير) في قصيدته البردة، من أقدم شعراء المديح النبوي، حيث أنشد القصيدة يوم أسلم، فأُعجب رسول الله ﷺ بشعره، وخلع عليه بردته.

والقصيدة تقع في خمسة وثمانين بيتاً، ابتدأها بالتغزّل بزوجته (سعاد) التي

كان قد فارقها ، ثم انتقل إلىٰ وصف الناقة وصفاً مفصلاً ، وفي نهاية القصيدة راح يتحدث عن مديح المصطفىٰ صلوات الله عليه:

إن الرسول لنورٌ يُستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلولُ
في عُصبةٍ من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضربٌ إذا عرَّدَ السودُ التنابيلُ
لا يقع الطعن إلاّ في نحورهمُ ... ومالَهُمْ عن حياض الموت تهليلُ

ثم سار العلامة (البوصيري) علىٰ نهج كعب بن زهير ، ومما قاله في مدح الرسول ﷺ حيث يظهر الحب والشوق:

أمِنْ تذكّر جيرانٍ بذي سَلَم ... مزجتَ دمعاً جرىٰ من مقلةٍ بدم
أم هبّت الريح من تلقاء كاظمةٍ ... وأومض البرق في الظلماء من إضَمِ
فما لعينيكَ إن قلتُ اكفُفَا همتا ... وما لقلبك إن قلتُ استفق يَهم
أيحسبُ الصبُّ أن الحبّ منكتمٌ ... ما بين منسجم منه ومضطرمِ
لولا الهوىٰ لم تُرق دمعاً علىٰ طللٍ ... ولا أرقْتَ لذكر البان والعلمِ
نعم سرىٰ طيفُ من أهوىٰ فأرّقني ... والحب يعترض اللذّات بالألَمِ
يالائمي في الهوىٰ العذريّ معذرةً ... مني إليك ولو أنصفت لم تَلُمِ

وعلى هذا النهج سار الشعراء والمحبّون ، فمن الذين عارضوا قصيدة البردة للبوصيري: البارودي ، وأحمد شوقي . . .

ومن الذين خمسّوها: ابن النحوي ، وابن خميس ، وابن منصور . . . وغيرهم[1] . . إذن:

الحديث عن الحبّ في القرآن الكريم والسنّة الشريفة وسيرة الرعيل الأول وفي قصائد الصوفية و . . . ، حديث لا ينتهي ، فهو بحر لا ساحل له . . .

لكن يكفي أننا أشرنا إشارات سريعة لذلك ، واللبيب ـ كما قالوا قديماً ـ من الإشارة يفهم . . .

---

(١) للتوسع يراجع: الشعر والشعراء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف: ١٠٧ ـ ١٦٦ .

سائلين الله تعالىٰ أن يفهمنا حقيقة الحب الخالد ، الحب السامي الطاهر ، وأن يفتح أمام أبصارنا وبصائرنا وعقولنا حقائق حبه وحب من يحبه . . . آمين . . آمين . . .

❑ ❑ ❑

الباب الثاني

شجرة الحبّ في القرآن الكريم...

الفصل الأول: أصلها ثابت (محبّة الله تعالىٰ).

الفصل الثاني: ساقها (محبّة رسول الله ﷺ).

الفصل الثالث: فرعها في السماء...!

الفصل الأول

أصلها ثابت (محبّة الله تعالىٰ)

١ ـ في سنن ابن ماجة بالسند المتصل إلىٰ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فمرّ بقومٍ، وامرأةٌ فيهم تحصبُ تنوّرها، ومعها ابن لها، فإذا ارتفع وهج التنّور تنحّت به. فأتت النبي صلوات الله عليه فقالت: أنت رسول الله؟

قال: «نعم».

قالت: بأبي أنت وأمي، أليسَ اللهُ بأرحم الراحمين؟

قال: «بلىٰ».

قالت: أوليسَ الله أرحمَ بعباده من الأمّ بولدها؟

قال: «بلىٰ».

قالت: فإن الأم لا تُلقي ولدها في النار.

فأكبّ النبي ﷺ يبكي، ثم رفع رأسه، وقال: «إن الله لا يعذّب من عباده إلاّ المارد المتمرّد الذي يتمرّد علىٰ الله، ويأبىٰ أن يقول: لا إلٰه إلا الله»[1].

وعندما ينصت القلب إلىٰ أمثال هذه الأحاديث الرائعة، إذا به ينبض... فيردّد معه اللسان:

يا ربِ! عبدٌ قد أتىٰ بفعاله   وبذّله قد مدّ كفّ سؤاله
وأتىٰ حبيبك طامعاً بنواله   عبدٌ توسّل بالنبيّ وآله

فبحقّهم يا ربّ لا تخزيه..

وفي صحيح مسلم قول الرسول ﷺ: «إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل

---

(١) سنن ابن ماجه: رقمه (٤٢٨٧).

فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّوه ، فينادي جبريل: إن الله يحبّ فلاناً فأحبّوه ، فيحبّه أهل السموات والأرض ، وإذا أبغض الله عبداً ، نادىٰ جبريل: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماوات والأرض»[1].

لكن هل تكون محبة العبد لربه محبة منفعة ذاتية أو حسية؟!

أبداً ، فمحبة العبد لربه تأتي من عُمق فهم الذات الإلٰهية ، وذلك بأن يعلم العبد ويوقن أن الله سبحانه هو العالِمُ بكل شيء ، وهو القادر علىٰ كل شيء وهو الرحيم بكل شيء ، وأنه الرازق ، وأنه . . . .

بينما العبيد هم المحتاجون إليه في كل شيء ، لذلك لا يمكن للعبد إلا أن يحبّ ربه سبحانه وتعالىٰ . . .

ولذلك كان العارفون بالله يصرّحون بأن حبّهم لله لا يأتي من خلال الخوف من عذاب النار ، ولا من خلال الطمع في ثواب الجنة!

إنما كانَ حبّهم لله يأتي من خلال حبّهم لصفاته وأسمائه التي لا مثيل لها، أي إنه حبٌّ مجرّد خالص لله سبحانه، وهذا ما عبّرت عنه رابعة العدوية رحمها الله تعالىٰ:

أُحِبُّكَ حبّين: حبُّ الهوىٰ ... وحبّاً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوىٰ ... فشغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفكَ للحجْب حتىٰ أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وكل ما في الدنيا من زخارف وشهوات ومتع و . . . ، لا تعدِلُ بحب العبد لربه شيئاً.

وإذا ظن العبد أنَّ هذه الأمور الفانية تساوي شيئاً ، فإنه يعيش في ظلماتٍ بعضها فوق بعض ، ومن ثمّ يلحقه التهديد الإلهي ، مصداق ذلك قول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا

(١) صحيح مسلم: (٢٦٣٧).

وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1].

ومن سيلحقه الضرر إذا أدبر العبد عن تعاليم السماء؟

لا شكّ أنه الإنسان ، لذلك جاء الوعيد الشديد من الله عز وجل لمن يحبّون أمور الحياة الدنيا ، ويفضّلونها علىٰ محبة الله ورسوله ﷺ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾[2].

ويعتبر البيان الإلهي أنَّ محبةَ العبدِ لربه شرط ضروريٌّ لصدق الإيمان بالله واليومِ الآخِرِ ، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

* * *

٢ ـ لكن العارفين بالله والذين أوتوا العلم ، هم الذين لهم قدم السَّبق في الحديث عن محبة الله ، من أولئك الإمام ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله ، فقد فتح الباب علىٰ مصراعيه وهو يتحدث في هذا المجال ، وكان ممّا قال:

(إن أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله ، ذلك لأن العبادة تتضّمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته ، فالمحبوب الذي لا يُعّظمُ ولا يُذلّ له لا يكون معبوداً ، والمعظّم الذي لا يُحبُّ لا يكون معبوداً ، ولهذا قال

---

(١) التوبة: ٢٤.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) المائدة: ٥٤.

تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

فبيّن سبحانه أن المشركين بربهم هُمُ الذين يتخذون من دونه أنداداً وإن كانوا همُ يحبّون الله، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من حبّهمْ لأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبّهم لغيره، وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، ومعلوم أن ذلك أكمل، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

وإنما الدّين الحق، هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقَدْر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا، وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك...).

ثم يؤكد ـ رحمه الله ـ علىٰ أن إخلاص الدين لا يكفي، بل لا بد من إخلاص العمل، ويضرب أمثلة عن أحوال المخلصين المحبين، فيقول:

(...إن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره، إذْ ليس عند القلب لا أحلىٰ، ولا ألذّ، ولا أطيب، ولا ألين، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضّمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدينَ والأعمالَ له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلىٰ الله، خائفاً منه، راغباً، راهباً، كما قال تعالىٰ:

﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[3].

---

(١) البقرة: ١٦٥.
(٢) الزمر: ٢٩.
(٣) ق: ٣٣.

إذن المحب يخاف من زوال مطلوبه ، وحصول مرغوبه ، فلا يكون عبداً لله ومحباً له إلا بين خوف ورجاء ، قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[1].

فالعبد المخلص لله يجتبيه ربه فيحُبي قلبه ، ويجتذبه إليه ، فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف العبد المخلص علىٰ حاله هذا من أن يحصل له ضد ذلك الحال ، أو أن يذهب عنه هذا الحال).

ثم يؤكد رحمه الله تعالىٰ ـ علىٰ أن محبة الله تستلزم محبة أحباب الله ، وذلك من خلال توقّفه عند قول الرسول ﷺ: «ثلاثٌ من كنّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبّه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذُه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار»[2].

فيقول: . . . أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاثة من كنّ فيه ، وجد حلاوة الإيمان ، لأن الشعور بحلاوة الشيء يتبع المحبة له ، فمن أحبّ شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده ، فإنه يجد الحلاوة ، واللذة ، والسرور بتلك اللذة، أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب المشتهىٰ ، ومن قال:

إن اللذة هي إدراك الملائم كما يقول بعض المتفلسفة والأطباء ، فقد غلط في ذلك غلطاً بيِّناً ، فإن الإدراك يتوسّط بين المحبة واللذة ، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام ، فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة تتبع النظر إلىٰ الشيء ، فإذا نظر إليه التذَّ ، فاللذة تتبع النظر ، وليست هي نفس النظر ، وليست هي رؤية الشيء ، بل تحصُل عقيب الرؤية ، قال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[3].

وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات ، والآلام ، من فرح ، وحزن ،

---

(١) الإسراء: ٥٧.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٥٦ ، صحيح مسلم: رقمه (٤٣) ، سنن الترمذي: رقمه (٢٩٢٦).

(٣) الزخرف: ٧١.

ونحو ذلك ، يحصل بالشعور بالمحبوب ، أو الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح والحزن ، فحلاوة الإيمان المتضمّنة من اللذة به ، والفرح ، ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان ، تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور :

١ ـ تكميل المحبة :

أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يُكتفىٰ فيها بأصل الحب ، بل لابدّ أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما .

٢ ـ تفريغ المحبة :

أن يُحب المرء لا يحبّه إلا لله .

٣ ـ دفع ضدّها :

أن يكره ضد الإيمان ، أعظم من كراهته الإلقاء في النار ، ومن ذلك يُعلم أن محبة الرسول ﷺ والمؤمنين من محبة الله ، وأن الرسول صلوات الله عليه يحب المؤمنين الذين يحبّهم الله ، لأنه أكمل الناس محبة لله ، وأحقهم بأن يحبّ ما يحبه لله ، ويبغض ما يبغضه الله ، ولذلك محبة رسول الله وَجَبَتْ لمحبة الله ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] .

ثم يصل الإمام رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أقسام المحبة ، فيقول :

(تنقسم محبة العبد إلىٰ قسميْنِ اثنين ، هما :

١ ـ محبة لأجل إحسانه : وهذه المحبة علىٰ هذا الأصل لا ينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة علىٰ حبّ من أحسن إليها ، وعلى بغض من أساء إليها ، والله سبحانه وتعالىٰ هو المنعم المحسن إلىٰ عبده بالحقيقة ، فإنه المتفضل بجميع النعم ، وإن جرت بواسطة ، إذ هو مُيسِّر الوسائط ومسّبب الأسباب ، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلىٰ محبة الله نفسه ، فما

---

(١) التوبة : ٢٤ .

أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه ، فما أحب في الحقيقة إلا نفسه ، وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله ، وأحبّوا أهلي بحبي»[1].

والمقتصر علىٰ هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه ، وهذا هو حبّ العامة.

٢ ـ محبة لما هو له أهل:

وهذا حبُّ من عرف من الله ما يستحق أن يحبّ لأجله ، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلّت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه ، حتىٰ جميع مفعولاته ، إذ كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً علىٰ كل حال ، ويستحق أن يحمد علىٰ السرّاء والضرّاء ، وهذا أعلىٰ وأكمل ، وهذا حبّ الخاصة.

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذّة النظر إلىٰ وجهه الكريم ، ويتلذّذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك ، حتىٰ لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون ، وهم السابقون كما في الحديث:

أن رسول الله ﷺ مرّ بجبل يُقال له جمدان ، فقال:

«سيروا هذا جمدان سبق المفردون».

قالوا: يا رسول الله! من المفردون؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفي رواية أخرىٰ قال: «المستهترون بذكر الله يضعُ الذكرُ عنهم أثقالهم ، فيأتون الله يوم القيامة خفافاً»[2].

والمقصود بالمستهترين بذكر الله: أي من يتولّع به ولا يفتر منه.

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي: (١٣٧٨).

(٢) صحيح مسلم: رقمه (٢٦٧٦) ، مسند أحمد: ٢/ ٤١١.

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال موسىٰ عليه السلام: يا رب! أيّ عبادك أحبُّ إليك؟

قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال: أيّ عبادك أعلم؟

قال: الذي يطلب علم الناس إلىٰ علمه، ليجد كلمة تدل علىٰ هدىٰ أو تردّه عن ردىٰ.

قال: أيّ عبادك أحكم؟

قال: الذي يحكم علىٰ نفسه كما يحكم علىٰ غيره، ويحكم لغيره كما يحكم علىٰ نفسه.

فذكر في هذا الحديث الحب والعلم والعدل، وذلك جماع الخير...).

ثم يصل الإمام ـ رحمه الله ـ إلىٰ قضية مركزية في مسألة الحب، فيتوقف عندها مطوّلاً ويشرحها، وملخصها: أن الله فطر قلوب عباده علىٰ محبته. مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهميةً جمعاء هل تحسُّون فيها من جدعاء؟»[2].

وعندما يصل الإمام بالحديث عن الحبّ إلىٰ أهم محركات القلوب، يؤكد علىٰ أنها أمور ثلاثة هي:

(...المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصود تراد لذاتها، لأنها تُراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف، فإنه يزول في

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) صحيح البخاري: (١٢٩٢)، مسند أحمد: ٣/ ٢٥٣، سنن البيهقي: ٦/ ٢٠٣.

الآخرة ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

والمقصود من الخوف: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقي العبد في السير إلىٰ محبوبه ، وعلىٰ قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليّه ، فالخوف يمنعه من أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم ، يجب علىٰ كل عبد أن يتنبَّهَ له ، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان ، قد لا يكون عنده محبة تبعثه علىٰ طلب محبوبه ، فأي شيء يحرك القلوب؟

نقول: يحركها شيئان:

١ ـ كثرة الذكر للمحبوب:

لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، وبهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير ، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2].

٢ ـ مطالعة آلائه ونعمه:[3]

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[6].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[7].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه ، من تسخير السماء والأرض وما فيها من

---

(١) يونس: ٦٢.
(٢) الأحزاب: ٤٢ ـ ٤٢.
(٣) للتوسع يراجع: نِعمَ الله بين الجاحدين والشاكرين ، للمؤلف: ١١٦ ـ ١٥٧.
(٤) الأعراف: ٧٤.
(٥) النحل: ٥٣.
(٦) لقمان: ٢٠.
(٧) النحل: ١٨.

الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره ، فلابدّ أن يثير ذلك عنده باعثاً.

وكذلك الخوف ، تحرّكه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه.

وكذلك الرجاء تحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو. . .)[1].

* * *

٣ ـ أجل!

فما أكثر ما وردت لفظة (الحب) في القرآن والسنة وحياة الصحابة والتابعين والعارفين ، لكن يمكن القول:

إن لها نوعين رئيسين ، هما:

١ ـ حب الربّ جل وعلا للعبد.

٢ ـ حب العبد للرب.

ولكل واحد من هذين النوعين فروع وتشعبات ، لذلك لا بدّ من الوقوف ـ ولو قليلاً ـ مع كل منها.

١ ـ حبّ الربّ جل وعلا للعبد:

وهذا رأس مال العبد ، وكنز الكنوز ، وقمة السعادة ، ولن يصل إلىٰ هذه الرتبة إلا قوم باعوا أنفسهم لله ، وساروا علىٰ نهجه وسبيله ، ولم يلاحظوا الأغيار أبداً.

عند ذلك اختارهم الله واصطفاهم ليكونوا قريبين منه ، ولذلك ذكر القرآن الكريم بعض النماذج التي اختارها الله لذلك؛ لكن قد يعترض البعض علىٰ ذلك ، محتجّين بأنه كيف نقول عن الله إنه يُحِبُّ؟!

وفي الجواب نقول:

---

(١) مقتطفات من كتابه: محبة الله والحب بين العبد والرب: ٣٧ ـ ٤٤.

شجرة الحب ـ القرآن الكريم

علماء السلف الصالح قالوا: إن المراد من محبة الرب للعبد غير معروفة الكيفية ، لكننا نتقبّلها بلا تأويل ولا كيف ، فما دام الله سبحانه وتعالىٰ قد أثبتها لنفسه في القرآن الكريم ، فهي ثابتة دون شك ، لكن دون مشاركةٍ للمخلوق في شيء من خصائصها ونحو ذلك . . .

أما علماء الخلف فقالوا: إنها تعني رضاه عنه ، وجزاءه علىٰ الأعمال الصالحة أحسن الجزاء .

ولا مشاحة في الحديث هنا بين السلف والخلف ، لذلك نتوقف مع بعض الآيات القرآنية التي تحدثّت عن محبة الرب سبحانه للعبد :

أ ـ حبّ الربّ سبحانه وتعالىٰ للمحسنين :

ورد في حديث نبوي طويل ـ في آخره ـ «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك»[1] .

قال الإمام النووي في تعليقه علىٰ هذا الحديث :

(. . وهذا من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ ، لأننا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة ، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالىٰ ، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره وباطنه علىٰ الاعتناء بتتميمها علىٰ أحسن وجوهها إلاّ أتىٰ به .

فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك ، كعبادتك في حال العيان ، فإن التتميم المذكور في حال العيان ، إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالىٰ عليه ، فلا يُقدم العبد علىٰ تقصير في هذه الحال ، للاطلاع عليه .

وهذا المعنىٰ موجود على عدم رؤية العبد ، فينبغي أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام: الحث علىٰ الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالىٰ في إتمام الخشوع والخضوع ، وغير ذلك .

وقد ندب أهل الحقائق إلىٰ مجالسة الصالحين ، ليكون ذلك مانعاً من تلبُّسِ

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٥٧ .

العبدِ بشيء من النقائص ، احتراماً لهم ، واستحياءً منهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالىٰ مطلعاً عليه في سرّه وعلانيته؟!

قال القاضي عياض رحمه الله : وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح ، وإخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمال ، حتىٰ إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعّبة منه .

ثم قال : وعلىٰ هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ، ألفّنا كتابنا الذي سّميناه (المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان) إذ لايشذُّ شيء من الواجبات والسنن والرغائب ، والمحظورات والمكروهات علىٰ أقسامه الثلاثة . . .)(١) .

ويشمل الإحسان إتقان أي عمل يقوم به الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا إذا راقب العبد ربه ، وشعر بإشراف الله عليه ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

ولعمري ، هل يغش عبد يعلم أن الله يراه؟ وهل يحلف أيماناً كاذبة من يتأكّد أن الله معه؟ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وقد تكلم الإمام الشاطبي عن إحسان العمل وإتقانه فقال :

(. . . وذلك أن الله عز وجل ، خلق الجميع غير عالمين بوجوه مصالحهم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾(٤) .

---

(١) شرح صحيح مسلم : ١/ ١٥٨ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

(٣) المجادلة : ٧ .

(٤) النحل : ٧٨ .

ثم وضع فيهم العلم بذلك علىٰ التدرج والتربية ، تارة بالإلهام ، كما يُلهم الطفل التقام الثدي ومصّه ، وتارة بالتعلم ، فطلب من الناس أن يتعلموا جميع ما يُسْتجلَبُ به المصالح وكل ما تُدرأ به المفاسد ، إنهاضاً لما جَبَل فيهم من غرائز فطرية ومطالب إلهامية .

وفي أثناء العناية بالأجيال الناشئة وتنمية مواهبها الفطرية ، يقوى في كل واحد من الخلق ما امتاز به ، ويبرز فيه علىٰ أقرانه الذين لم تهيئهم الأقدار علىٰ غرائزه ، فلا يأتي زمان التعقل حتىٰ يتضح فيه ما اختص به من ملكات .

فهذا يطلب العلوم ، وهذا يعشق الآداب ، وهذا يتجه لبعض المهن ، وهذا يهوىٰ الرياضة والفروسية ، وهذا يحب الكفاح والجلاد ، وهذا يَنْشُد التقدم والرياسة . . .

وإذا كان كل واحد قد غرزت فيه القدرة علىٰ الاقتباس من شتىٰ العلوم والمعارف ، إلا أن العادة جرت بغلبة بعض الميول ، إلىٰ ناحية من النواحي ، فالتربية الصحيحة حينئذٍ أن تقوّىٰ فيه هذه الميول بالإنماء والرعاية ، ثم توزيع الأعمال علىٰ المكلفين بما يُوائم ميولهم وطبائعهم ، وعندئذٍ ينهض كل مكلف بأداء ما هو راغب فيه بإحسان . . .)[1] .

لكن ما هو الطريق الذي يوصل إلىٰ الإحسان؟

أجاب ابن عطاء الله السكندري رحمه الله علىٰ ذلك بقوله :

(. . . لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره ، أشدّ من غفلتك في وجود ذكره ، فعسىٰ أن يرفعك من ذكرٍ مع وجود غفلة ، إلىٰ ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكرٍ مع وجود يقظة ، إلىٰ ذكرٍ مع وجود حضور ، ومن ذكرٍ مع وجود حضور ، إلىٰ ذكرٍ مع رغبة عما سوىٰ المذكور ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[2] .

وقد ورد في كلام المعصوم ﷺ ما يناسب المقال :

---

(١) الموافقات : ١/ ١٧٩ .

(٢) إبراهيم : ٢٠ .

روىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه ـ كما في مسند أحمد ـ أن الرسول ﷺ سأله رجل فقال: أيّ المجاهدين أعظم أجراً؟

قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالىٰ ذكراً».

قال: فأيّ الصالحين أعظم أجراً؟

قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالىٰ ذكراً».

ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة. . . ، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: «أكثرهم لله تعالىٰ ذكراً»[1].

فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير!

فقال رسول الله ﷺ: «أجل».

أجل!

إن الله سبحانه وتعالىٰ يحبّ من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، فيكون بذلك محسناً، مراقباً لربه، لا يغش ولا يخدع، ولا يكذب ولا يزوّر. . . إنما يجعل نصب عينيه قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].

وبذلك يدخل تحت ظلال قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

ب ـ حبّ الرب سبحانه وتعالى للمتطهّرين:

ذلك لأن الطهور شطر الإيمان، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المتطهرين، فقال جل وعلا:

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[4].

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ بتطهير ثيابه من النجاسات، قال تعالى:

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١٥٦١٤).
(٢) الزلزلة: ٧ ـ ٨.
(٣) البقرة: ١٩٥.
(٤) التوبة: /١٠٨/.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[1].

ولذلك لا تصحّ الصلاة ، ولا أيّ عبادةٍ من العبادات إلا إذا سبقتها الطهارة ، وهي تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **طهارة الظاهر**: كالوضوء والغسل من الجنابة وإزالة النجاسة ، وطهارة الثوب والمكان ، مصداق ذلك ما رواه الترمذي بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله طيّب يحبّ الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحبّ الجود ، فنظّفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود»[2].

٢ ـ **طهارة السرائر**: وتعني تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل ، كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: (قال العلماء: البدن مملكة النفس ومدينتها القلب ، وسط المملكة ، والأعضاء كالخدم ، والقوى الباطنية كضياع المدينة ، والعقل كالوزير المشفق الناصح ، والغضب صاحب الشرطة ، وهو عَبدٌ مكار خبيث ، يتمثل بصورة الناصح. ونصحه سُمّ قاتل ، ودأبه ـ أبداً ـ منازعة الوزير الناصح ، والقوة المخيلة في مقدمة الدماغ كالخازن ، والقوة المفكرة في وسط الدماغ ، والقوة الحافظة في آخر الدماغ ، واللسان كالترجمان ، والحواس الخمس جواسيس وقد وُكِّل كل واحد منهم بصنيع من الصناعات ، فوكّل العين بعالَمِ الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، وكذلك سائرها، فإنها أصحاب الأخبار ، ثم قيل: هي كالحجَبة ، توصل إلىٰ النفس ما تدركه ، وقيل: إن السمع والبصر والشم كالطاقات تنظر منها النفس ، فالقلب هو الملك ، فإذا صلَح الراعي صلحت الرعية ، وإذا فسد فسدت الرعية.

وإنما يحصل صلاحه بسلامته من الأمراض الباطنة: كالغلّ والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسخرية والرياء والسمعة والمكر والحرص والطمع وعدم الرضا بالمقدور ، وأمراض القلب كثيرة تبلغ نحو الأربعين ، (عافانا الله منها وجعلنا

---

(١) المدثر: / ٤/ .

(٢) سنن الترمذي: (٢٨٧٧).

ممن يأتيه بقلبٍ سليم) وصدق الله بـقوله: ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1].

جـ ـ حبّ الله تعالى للصابرين: لقد وعد الله تعالى الصابرين ـ وهو أصدق من وعد ـ بعطاء لا حدّ له، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

والصبر هو الخُلق الرفيع الذي يخفّف من المصائب والآلام، فيجعل القلب هادئاً ساكناً مطمئناً، بل إن الصبر يحوّل الآلام إلى آمال، وذلك من خلال النظر إليها على أنها من عند الله.

لذلك فلا يلقى هذا الخُلق إلا الذين قرّبهم الله واصطفاهم، مصداق ذلك ما ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً أوسع من الصبر»[3].

من هنا يكرم الله الصابرين ببعض الخصال التي لا تتوفّر لغيرهم، وهي التي جمعتها الآية/ ١٥٧/ من سورة البقرة:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ والصلاة من الله ثناء وتشريف.

﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما يجعلهم في حال الرضى والتسليم...

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ لذلك يوفّقون إلى الصواب...

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلمَ من وصب ولا نصب ولا همّ ولا حزن ولا أذىً ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه»[4].

وصدق الله عندما قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[5].

---

(١) البقرة: /٢٢٢/.
(٢) الزمر: /١٠/.
(٣) صحيح مسلم: (١٠٥٣).
(٤) صحيح البخاري: ١٠/ ٩١، صحيح مسلم: (٢٥٧٣).
(٥) ال عمران: /١٤٦/.

د ـ حبّ الله تعالى للمقسطين:

القاسطون هم العادلون ، وهؤلاء هم الذين يحبّهم الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١).

فهم يعدلون مع أنفسهم ومع الآخرين ، ومع الأعداء ، ذلك لأن صفتهم العدل ، مصداق ذلك وصية الله في قوله:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٢).

فالمسلم يمارس العدل الذي قامت به السموات والأرض ، والذي لا تدوم الدول إلا به ، والذي لا تسعد الأمم إلا بالتمسّك به ، لذلك: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه قول الرسول ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلوا»(٤).

وعلّق الإمام النووي رحمه الله على ذلك بقوله: (وأما المنابر فجمع منبر ، سمي به لارتفاعه ، قال القاضي: يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقية ، على ظاهر الحديث ، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة.

قلت ـ النووي ـ: الظاهر الأول ، ويكون متضمناً للمنازل الرفيعة ، فهم على منابر حقيقية ومنازلهم رفيعة.

ـ ثم قال ـ وهذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلّد من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة ، أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف ، وفيما يلزمه من حقوق

---

(١) الحجرات: / ٩/ .
(٢) النساء: / ٣٥/ .
(٣) النحل: / ٩٠/ .
(٤) صحيح مسلم: (١٨٢٧).

أهله وعياله ، ونحو ذلك ، والله أعلم . . .) .

والرسول ﷺ القدوة والأسوة ، قد رسم لنا منهج العدل مع كل شيء ، وفي كل شيء :

ففي صحيح مسلم دعاءُ النبي ﷺ ، والذي فيه : «اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً ، فرفق بهم ، فارفُق به»[1] .

وفي التطبيق العملي لذلك نرى أمراً عجباً!

في مرض موته ﷺ خرج على الناس فقال : «أيها الناس! من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقدْ مني ، ومن كنت شتمتُ له عرضاً فهذا عرضي فليستقدْ منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشَ الشحناء فليست من شأني»[2] .

وتروي كتب السّير قصة رائعة ، فيها الدلالات الواضحة على كيفية تطبيق الرسول ﷺ للعدل :

قبيل معركة بدر عدَّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه ، وكان في يده قِدْح[3] يعدل به القوم .

فمرّ بسواد بن غُزيَّة رضي الله عنه وهو مستنتل[4] من الصف ، فطعنه في بطنه بالقدح ، وقال : «اسْتو يا سواد» .

فقال : يا رسول الله! أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني!

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال : استقد .

قال : فاعتنقه فقبَّل بطنه .

فقال : «ما حملك على هذا يا سواد؟» .

قال : يا رسول الله! حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر عهدي بك أن

---

(١) صحيح مسلم : (١٨٢٨) .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي : ٩/ ٢٦ .

(٣) نوع من أنواع السهام يشبه العصا .

(٤) أي : متقدّم .

يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له بخير . .[1] .

وفي تطبيق خلق العدل يسعد الجميع ، لأنه لا ميّزةَ لأحد دونَ أحد ، إنما هو العدل وخلقه كما يروي البخاري وغيره حادثة المرأة المخزومية ، وملخّصها :

« . . . فلما كلّمه صلوات الله عليه أسامة بن زيد في المرأة المخزومية التي سرقت، تلوّن وجه رسول الله ﷺ، وقال : أتكلّمني في حدٍّ من حدود الله تعالى؟

فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله .

فلما كان العشي ، قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله تعالى ، بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، فإنما أهلَكَ الناس قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها»[2] .

وعلى هذا المنوال سار الرعيل الأول ، فكانوا بحقّ مصابيح تهتدي بها الأجيال من بعد ، وتستنير بها الأمم ، من ذلك ما روته كتب التراجم :

. . . بلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن أحد أبنائه اشترى خاتماً بألفِ درهم ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم!

فبعْه وأشبع به ألف جائع ، واتّخذ خاتماً من حديد واكتب عليه : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه . . .

أجل!

إن الإنسان العادل يحاسب نفسه وأهله ، ويزن الأعمال بالقسطاس المستقيم ، وعندئذ يدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٤٤٦ ، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد : ٣/٥١٦ ، سيرة ابن هشام : ٢/٢٦٦ .
(٢) صحيح البخاري : (٦٤٠٥) .
(٣) المائدة : / ٤٢/ .

٥ ـ حبّ الله تعالى للمقاتلين في سبيله:

يحب سبحانه المقاتلين في سبيله لأنهم يضحّون بأغلى ما يملكون، فإذا كان بعضهم يضحي بمالٍ أو نحو ذلك، فإن هؤلاء يضحّون بالأنفس، والتضحية بالنفس أعظم أنواع الجود.

ذلك لأن سلعة الله غالية، وهي الجنة، وثمنها كما قرّر البيان الإلهي: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا . . .﴾[1].

يقدّمون أنفسهم لا من أجل أن يُقال عنهم: إنهم مقاتلون وشجعان أو غير ذلك، إنما يقدّمونها من أجل إعلاء كلمة الله سبحانه.

لكن السؤال الملحّ: وكيف يُقدم الإنسان على بذل نفسه؟!

لا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا أخلص العبد في محبته لله سبحانه حتى تكون محبته لله فوق كل محبة، وعند ذلك يصبح حاله كما وصف الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2].

وإذا باع العبد نفسه لخالقه ومولاه، فهل يخاف من عدو أو أسلحة أو طاغية أو تحالف دولي.. أو غير ذلك؟

أبداً، فهو ينتظر القدوم على الله، وذلك من شدّة حبّه له واشتياقه إلى لقائه.

وليس ذلك ضرباً من الخيال، إنما حدثنا التاريخ أن الصحابي كان ينطلق لمنازلة الأعداء وهو يقول: غداً ألقى الأحبّة محمداً وصحبه.

وإذا طُعن في مقتل كان يردّد: فزتُ وربّ الكعبة...

وهذا لعمري هو الحب العارم، الذي يجعل العبد لا يلتفت إلى مسألة الموت ويتركُ الدنيا وما فيها، لأن هناك أمراً أعلى ومقاماً ينتظره منذ زمن

---

(١) التوبة: / ١١١/.
(٢) البقرة: / ١٦٥/.

بعيد ، ويحبّ الوصول إليه ، وهو لقاء ربه ومولاه . . .

ولذلك يكافئ الله المقاتلين في سبيله الذين يقدِّمون أنفسهم في سبيله ، بأن يبادلهم المحبة بأن يحبهم .

وهل يوجد مقامٌ أعلى من أن يحبّ الله عبده؟ وهل يُعذب الله عبداً أحبّه هو سبحانه؟!

مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[1] .

و ـ حبّ الله تعالى للمتقين :

سأل الفاروق عمر رضي الله عنه أُبيّاً عن التقوى .

فقال أُبيّ : هل أخذت طريقاً ذا شوك؟

قال : نعم .

قال : فما عملت فيه .

قال : شمّرت وحذرت .

قال : فذاك التقوى .

وفي التقوى تفريج للكرب ، وتنوير للبصيرة ، ومأمن من الخوف والحزن يوم المعاد ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[3] .

وصدق العارفون بالله عندما حدّدوا أموراً فيها دقّة متناهية ، فقالوا : إن أفضل ما يحصّل عليه الإنسان هو تقوى الله سبحانه .

فقيل : وما الدليل على ذلك؟

---

(١) المائدة : / ٥٤ / .

(٢) الأنفال : / ٢٩ / .

(٣) يونس : / ٦٢ ـ ٦٤ / .

قالوا: قول المعصوم ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[1].

يريد المرء أن يُؤتى مُناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء: فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

وهكذا يعيش العبد المتّقي مع الله ، وفي الله ، ولله ، فلا يتحرّك حركةً إلا وهو يراقب الله ، ولا يغضب إلا لله ، ولا يحبّ إلا في الله . . .

وكل ذلك نابع من حبّه لله ، ومن حبّ الله سبحانه وتعالى له ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿. . . فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ز ـ حبّ الله تعالى للمتوكلين:

عندما يثق العبد بخالقه ويعتمد عليه في أموره كلها ، ويوقن تماماً بأن ما جاء من عنده هو لصالحه. . . ، عند ذلك يعيش الرضا والطمأنينة ، فلا يحزن على ما فات ، ولا يخاف مما سيأتي.

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو يشعر بصحبة الله ومعيته. . . ! ، كما في قصة نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وذلك عندما أمرهما الله سبحانه أن يذهبا إلى الطاغية فرعون ، قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3].

وصدق المعصوم صلوات الله عليه عندما رسم منهج التوكل على الله، وبيّن ثمراته ، فقال: «لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[4].

أجل!

---

(١) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٧، والمعجم الأوسط للطبراني: ١/ ١٦٣.
(٢) آل عمران: /٧٦/.
(٣) طه: /٤٥ ـ ٤٦/.
(٤) سنن الترمذي: ٢/ ٥٥، سنن ابن ماجه: (٤١٦٤) المسند: ١/ ٣٠.

على الإنسان أن يراعي الأسباب الظاهرة ، لكن عليه أن يبقى متكلاً في أموره على الله سبحانه ، أي عليه ألاّ يترك الأسباب ، ولا أن يعتمد عليها بالكلية ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(1) .

ح ـ حبّ الله تعالى للتوابين :

وشروط التوبة النصوح :

١ ـ الندم بالقلب. ٢ ـ الاستغفار باللسان. ٣ ـ الإقلاع عن الذنب. ٤ ـ الاطمئنان على ألاّ يعود إليه .

وأقسامها :

١ ـ توبة عن الكفر بالله والشرك به. ٢ ـ توبة عن المعاصي التي بينه وبين ربه. ٣ ـ توبة عن الجرائم التي بينه وبين الخلق. ٤ ـ توبة العابدين والطائعين .

والأفضل أن يتعجّل التوبة ، وأن يبتعد عن الذنوب ما أمكن ، وأن يبقى في حال الندم مما وقع فيه . . . ، وأن يُحسن الظن بالله ، ولا ييأس من رحمة الله ، وأن يبقى في حال أمل باسم من حيث اعتقاده بأن الله سبحانه هو الرحيم الرحمن ، وهو الرؤوف بالعباد . . .

وبأن باب التوبة مفتوح ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(2) .

وفي الحديث القدسي الذي رواه الإمام الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت الرسول ﷺ يقول : «قال الله تعالى : يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقُرابها مغفرة»(3) .

---

(١) آل عمران : /١٥٩/ .
(٢) الشورى : /٢٥/ .
(٣) الترمذي/ ٣٤٦٣/ .

وعندما يعيش العبد حالة التوبة والإنابة ، فإن الله يصطفيه تحت ظلال الذين يحبّهم ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

٤ ـ لكن القرآن الكريم ذكر أن الله تعالى لا يحبّ حملة الصفات الموغلة في السوء فذكر منهم :

أ ـ المفسدين :

الفساد نقيض الصلاح ، وفي تعريفات الجرجاني ، أنه : زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة[2] .

ومما أورده القرآن الكريم في شأن المفسدين :

إفسادهم بإهلاك الحرث والنسل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[3] .

والإفساد بإيقاد نار الحرب ، وذلك عن طريق الفتن والكيد للإسلام والمسلمين ، كما في قوله تعالى وهو يتحدث عن اليهود : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[4] .

والإفساد في الأرض : وذلك عن طريق قتل النفوس ، أو نهب الأموال ، أو قطع الأرحام ، أو تخريب البلاد ، أو الدعوة إلى غير دين الله و . . .

مصداق ذلك ما صوّره القرآن لحالة قارون الغني : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[5] .

---

(١) البقرة : / ٢٢٢/ .

(٢) التعريفات : ١٦٦ .

(٣) البقرة : / ٢٠٤ ـ ٢٠٥/ .

(٤) المائدة : / ٦٤/ .

(٥) القصص : / ٧٧/ .

أما عاقبة المفسدين فقد بينها القرآن الكريم بكل وضوح وجلاء ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ب ـ الكافرين :

الكفر : ضدّ الإيمان ، وسميّ بذلك لأنه تغطية الحق .

وأما من الناحية الشرعية ، فيقصد به : إنكار ما علم ضرورة أنه من دين محمد ﷺ ، كإنكار وجحود الصانع ، ونبوته عليه الصلاة والسلام ، وحرمة الزنا ، ونحو ذلك . . .

وقد أورد القرآن الكريم للكفر أنواعاً من مثل :

التمادي في كفر من أنعم الله عليه بالمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[2] .

وكذلك عدم طاعة الله ورسوله ممَّا يعني الكفر الذي يبغضه الله تعالى ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3] .

(. . . يعني بذلك جلّ ثناؤه : قل يا محمد لهؤلاء الوفد من نصارى نجران : أطيعوا الله والرسول محمداً فإنكم قد علمتم أنه رسولي إلى خلقي ، ابتعثته بالحق ، تجدونه مكتوباً عندكم في الإنجيل ، فإن تولوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك ، وأعرضوا عنه ، فأعلمهم أن الله لا يحب من كفر فجحد ما عرف من الحق ، وأنكره بعد علمه ، وأنهم منهم ، بجحودهم نبوتك ، وإنكارهم الحق الذي أنت عليه ، بعد علمهم بصحة أمرك وحقيقة نبوتك . . .)[4] .

---

(١) المائدة : / ٣٣/ .
(٢) البقرة : / ٢٧٦/ .
(٣) آل عمران : / ٣٢/ .
(٤) جامع البيان للإمام الطبري : ٣/ ٢٣٣ .

وأما أنواع الكفر فكثيرة ، منها :

الكفر بالله ، وبالملائكة ، وبالكتب السماوية ، وبالرسل ، وباليوم الآخر .

ومن الصور التي أوردها القرآن الكريم ، والتي تتعلق بالكفر :

الشرك : مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1] .

ومنها : الافتراء على الله ، ومحاربة الله ، ومحاربة الرسل ، ومحاربة المؤمنين ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والردّة ، والصدّ عن سبيل الله . . .

ج ـ الخائنين :

قال الراغب الأصفهاني : . . والخيانة هي مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة : الأمانة ، يُقال : خنتُ فلاناً ، وخنتُ أمانة فلان .

والاختيان : مراودة الخيانة ، وهو تحرّك شهوة الإنسان لتحرّي الخيانة[2] .

ومن صور الخيانة :

١ ـ خيانة الله سبحانه ، ويكون ذلك بالاعتداء على حدوده ، وتعطيل فرائضه .

٢ ـ خيانة رسول الله ﷺ ، ويكون ذلك بالإعراض عن السنّة النبوية ، والادعاء بأنها ليست صالحة لهذا الزمان ، ونحو ذلك .

٣ ـ خيانة الأمانة ، كإفشاء الأسرار والعهود والمعاملات المالية وغير ذلك .

ومما أورد القرآن الكريم في الحديث عن الخيانة :

خيانة النفس ، مصداق ذلك قوله تعالى في قصة (طعمة بن أبيرق) وذلك عندما سرق درعاً : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[3] .

---

(١) الأنعام : / ١ / .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٥ .

(٣) النساء : / ١٠٧ / .

شجرة الجنة ـ القرآن الكريم

وخيانة الله بالكفر والمعصية ووضع نعمه في غير المواضع التي رُسمت لها، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾(١).

وخيانة العهد والمواثيق بين الدول والشعوب، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾(٢).

(.. عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الخائنين بعد الحكم الخاص بقوم معينين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة، فيبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم، فأمره الله أن يرد إليهم عهدهم، إذ لا فائدة فيه؛ إذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم)(٣).

د ـ المتكبرين:

والمتكبّر هو الذي يحتقر الآخرين، ولا يقبل منهم نصيحةً، ولا يُذعن للحق أبداً، ومثله المختال والمتباهي..

ومن أقسام الكبر: التكبر على الله، وذلك من خلال الاستكبار على أوامره وعلى عباده وأوليائه، والتكبر على رسله، إلى غير ذلك من أنواع الكبر.

ومن الآيات التي وردت في التحدّث عن الكبر:

التكبّر بالنفس والتفاخر فيما وهب الله، مصداق ذلك ما ورد في وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(٤).

وكذلك التكبر على الجيران والأقرباء والناس أجمعين، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ

---

(١) الحج: /٣٨/.
(٢) الأنفال: /٥٨/.
(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٠/ ٥٣.
(٤) لقمان: /١٨/.

ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1] .

وكذلك الاختيال بحظوظ الدنيا ، ونحو ذلك .

فتغدو نتائج الاختيال والكبر عمى القلب عن الحقائق في الدنيا ، فيُحرم الإنسان من الفهم ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2] .

وفي يوم القيامة الخزي وسوء المآل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] .

هـ ـ الظالمين :

الظلم لغة : وضع الشيء في غير موضعه ، واصطلاحاً : التعدّي عن الحق إلى الباطل ، وهو الجور .

ومجالات الظلم كثيرة ، منها : ظلم الإنسان لحق الله عليه ، وذلك من خلال الإعراض عن عبادته ، والوقوع في الآثام والذنوب . . .

وظلم الإنسان لمخلوقات الله ، من حيث القيام ببعض الأعمال التي تهلك الحرث والنسل ، وتدمّر موجوداتٍ في الكون . .

وظلم الإنسان لنفسه يكون من خلال التنطّع والتشدد في بعض العبادات . . .

وظلم الإنسان للآخرين يكون بالاعتداء عليهم وأكل حقوقهم ونحو ذلك . . .

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الظلم في كثير من الآيات ، وذلك بهدف توضيح الصورة .

فتارةً يعتبره شركاً بالله ، وتارةً يتحدث عنه من خلال تجاوز الحدود الشرعية

---

(١) النساء : /٣٦/ .
(٢) غافر : /٣٥/ .
(٣) غافر : /٦٠/ .

التي رسمها الله ، وتارة ثالثة يحصره في مسألة منع مساجد الله والاعتداء على عباده ، ورابعة يحصره في الإعراض عن آيات الله وكتم شهادة الحق . . .

قال تعالى في الحديث عن الظلم على أساس أنه الشرك بالله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى في الحديث عن صورة ثانية من صور الظلم ، على أساس أنه الزيادة في رد الاعتداء : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

و ـ المعتدين :

قال الراغب الأصفهاني : العَدْوُ : التجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارةً يُعتبر بالقلب ، فيقال له : العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي ، فيقال له : العدو . وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة ، فيقال له : العدوان والعدو ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[3] .

فمن المعاداة يقال : رجل عَدُوّ ، وقوم عدو . . .[4] .

وفي حديث القرآن الكريم عن المعتدين صور ، منها : الاعتداء بتحريم ما أحلّ الله ، كتحريم الطيبات ونحو ذلك ، وهذا ظلم يحرمه الله ولا يحبه .

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ ، فقال[5] : يا رسول الله! إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء ، وأخذتني شهوتي ، فحرمت عليّ اللحم ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ

---

(١) آل عمران : / ٥٦ ـ ٥٧ / .
(٢) الشورى : / ٤٠ / .
(٣) الأنعام : / ١٠٨ / .
(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٥٣ .
(٥) سنن الترمذي : رقمه (٣٠٥٤) .

مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾[١].

وعلّق الإمام الرازي على ذلك:

«وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فيه وجوه:

الأول: أنه تعالى جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها.

والثاني: أنه لما أباح الطيبات حرّم الإسراف فيها، وذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾[٢].

والثالث: يعني لما أحلّ لكم الطيبات فاكتفوا بهذه المحللات ولا تعتدوها إلى ما حرّم عليكم..»[٣].

ومن الصور أيضاً: الاعتداء في القتال، كأن يدبّ الحماس في نفوس المقاتلين، وتغلي الدماء في العروق، فينسى المقاتل القوانين الشرعية في الحرب، كعدم قتل النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان، وعدم قطع الأشجار وردم الآبار وغير ذلك..

مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٤].

ومن الصور أيضاً: الاعتداء في الدعاء، كأن يطلب الإنسان أمراً غير مشروع، أو أن يكون الدعاء بألفاظ فيها تكلّف وتقعّر.

فالمطلوب أن يكون الدعاء عادياً، لا تكلّف فيه ولا رفع للصوت

---

(١) المائدة: / ٨٧ ـ ٨٨/.
(٢) الأعراف: / ٣١/.
(٣) التفسير الكبير للإمام الرازي: ١٢/ ٦٠.
(٤) البقرة: / ١٩٠/.

ولا صياح و . . . ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

ز ـ المسرفين:

والمقصود بالسّرف: تجاوز الحدّ ـ حدّ الاعتدال ـ ، سواءٌ أكان ذلك في طعام أم في شراب أم لباس أم سكن . . .

فالإسراف في الطعام والشراب والثياب أمرٌ لا يحبّه الله سبحانه ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ، ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة»[3].

وكذلك الإسراف في الصدقة والأكل أمرٌ لا يحبّه الله ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[4].

ح ـ الفرحين:

قال الراغب الأصفهاني: الفرح: انشراح الصدر بلذّة عاجلة ، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية[5] ، لذا قال تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾[6].

لكن هل من المعقول أن الله لا يحب الفرح؟!

---

(١) الأعراف: / ٥٥/ .
(٢) الأعراف: / ٣١/ .
(٣) سنن ابن ماجه: رقمه (٣٦٠٥).
(٤) الأنعام: / ١٤١/ .
(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٢٨ .
(٦) الحديد: / ٢٣/ .

القرآن الكريم أوضح الحكاية تماماً ، حيث اعتبر أن الفرح قسمان :

ـ فرح محمود ، كأن يفرح بفضل الله تعالى ، ويفرح برحمته ، ويفرح بنصره . . .

ـ فرح مذموم ، وهو الذي يجعل الإنسان يزهوّ ويعتز بالمال أو المنصب أو بأمور دنيوية ، أو بغير ذلك .

لذلك ذكر القرآن الكريم بعض الصّور التي تبين الفرح المذموم ، من ذلكم مثلاً :

ـ الفرح بالحياة الدنيا وزينتها وزخارفها ، وهذا هو الزّيف والخداع الذي يجعل بعض الناس يفرحون فرح البطر . . . ، وينسون مآل ذلك كله !

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾(١) .

ـ الفرح الاستكباري ، وهو الفرح الذي يؤدي إلى التباهي والتفاخر على الآخرين كما حدث مع قارون ، حيث استكبر بماله وبطر على خلق الله ، قال تعالى في الحكاية : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(٢) .

ـ الفرح بالعلم ، بحيث لا يجعل العلم صاحبه يتواضع للناس ، وينتقي الأمور المفيدة ليقدّمها للآخرين ، إنما يجعل الإنسان مستكبراً باغياً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٣) .

لذلك كله ، أتى تهديد الله لكل من يفرح الفرح الاستكباري المذموم : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ .

أجل !

---

(١) الرعد : / ٢٦ / .

(٢) القصص : / ٧٩ / .

(٣) غافر : / ٨٣ / .

شجرة الطيب ـ القرآن الكريم

تلك بعض النماذج التي ذكرها القرآن الكريم ، والتي فيها الدلالة الواضحة على الأصناف التي لا يحبها الله سبحانه .

وقد ذُكرت من باب التنبيه للابتعاد عن الصفات السيئة والأفعال القبيحة والعادات المشينة .

نسأل الله تعالى السلامة وحُسن الخاتمة . .

آمين

❑ ❑ ❑

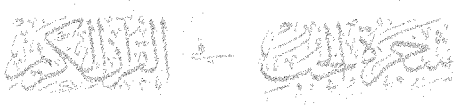

النوع الثاني من الحب هو:

٢ ـ حب العبد للرب جلّ وعلا:

هناك عدّة مظاهر لهذا النوع من الحبّ ، ولكن يمكن حصرها بما يلي :

أ ـ الرضا بكل ما جاء من عند الله سبحانه وتعالى :

وقد عرّفه العلماء بأنه تقبّلُ ما يقضي به الله عز وجل ، من غير تردّد ولا معارضة ، وفي القرآن الكريم حديث مستفيضٌ عن هذا الخلق الرفيع ، منه قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) .

واعتبر القرآن الكريم من يحمل هذه الصفة بأنه من حزب الله ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢) .

وهؤلاء هم الذين يعيشون الرضى عن الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فهم يتلقوّن كل ما يأتي من القضاء والقدر تلقيَ السكينة والهدوء ، فلا يتذمّرون ولا يعترضون ، ولا يتأفّفون ولا يسخطون ، إنما لسان حالهم يقول: كل ما أتى من الله فهو على الرأس والعين.

حتى لو كان ظاهر الأمر مصيبةً أو خسارةً أو نحو ذلك، لأن المسألة أن الدار الدنيا ليست إلا معبراً يعبر الإنسان من خلالها من دار الفناء إلى دار الخلود، وأن السعادة والنجاة لمن يتصبّر ويصبر، ويحتسب الأجر عند الله سبحانه.

---

(١) التوبة: / ١٠٠/ .

(٢) المجادلة: / ١٢٢/ .

قال عز وجل وهو يُوضّح أفضل موقف يقفه العبد أمام المصائب والابتلاءات: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

فالغاية العليا أن يرضى الله تعالى عن العبد، سواءً رضي الناس أم سخطوا، وعلى حدّ ما كانت تتمثل به السيدة رابعة العدوية، وهي تناجي الله سبحانه:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضابُ؟
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... بيني وبين العالمين خرابُ؟
إذا صحَّ منك الودّ فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ؟

وهذا ما كان يدندن عليه الرعيل الأول، فعمار بن ياسر رضي الله عنه كان يخاطب مولاه وسيّده جلّ وعلا بقوله: لو كنتُ أعلم أن رضاك عني يكون إذا ألقيت بنفسي من هذا الجبل لفعلتُ! أو كان يرضيك عني أن ألقي بنفسي في هذا المحيط لفعلت..!!

والموقف الرائع في السيرة النبوية فيه دروس وعبر:

فبعد التعذيب الذي مارسه المشركون على الرسول ﷺ والقلّة الضعيفة المؤمنة معه، خرج صلوات الله عليه من مكة إلى الطائف، عسى أن يكون حال أهل الطائف أحسن حالاً من أهل مكة.

ولما خاطبهم بدعوتِهِ، طردوه... وسلّطوا عليه السفهاء والمجانين والأولاد، ورموه بالحجارة والقاذورات، حتى أدموا قدميه!!

ولما خرج من الطائف، عمد إلى حائط بستان، فأسند ظهره إليه ليرتاح قليلاً، وهناك رفع تقريره التالي إلى رافع السماء بلا عمد:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقِلَّةَ حيلتي وهواني على الناس؛

---

(١) البقرة: /١٥٥ـ١٥٧/.

يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدوٍّ يتجهّمني أم إلى قريبٍ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحلّ بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

هذا هو الرضى عن كل ما جاء به قضاء الله وقدره ، حتى لو كانت النفس لا ترغب به ، أو كانت تتألّم منه . . .

قال تعالى في معرض التأكيد على ضرورة الرضا المطلق: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

وقال الرسول ﷺ: «من قال كل يوم: رضيتُ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولاً ، كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»[3].

لكن ماذا يُفيد الرضا والناس تسعى إلى الأموال والجاه . . . ؟

سُئل (أبو حازم) رحمه الله: ما مالُك؟

فقال: مالي الرضى عن الله والغنى عن الناس.

للناس مال ، ولي مالان ، ما لهما إذا تحارس أهل المال أحراسُ
مالي الرضى بالذي أصبحتُ أملكه ومالِيَ اليأس مما يملك الناسُ

لكن هل يظنّ الإنسان أن الوصول إلى درجة الرضى عن الله أمرٌ سهلٌ؟!

أبداً ، فلا بد من الترويض والتعويد على التوكل والاعتماد على الله ، واستقبال الأفراح والأحزان بكل رحابة صدر وتسليم مطلق لله . . .

ولعمري لا يكون ذلك إلا إذا كان حبُّ الإنسان لله أكثر من حبّه لكل ما في

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ٦/ ٣٥ ، وللحديث روايات عديدة كما في صحيح البخاري ٤/ ١٣٩ ومسلم ٣/ ١٤٢٠.

(٢) الأحزاب: / ٣٦/ .

(٣) مسند أحمد: (١٨٦١٣).

شجرة البيان - القرآن الكريم

هذا الكون، ولا يكون ذلك إلا إذا عرف العبد ربه. . . فكلما كان العبد عارفاً أكثر ـ أصبح محباً لله أكثر.

ولذلك فإن أكثر الناس حباً لله هو سيدنا رسول الله ﷺ، والسبب في ذلك أنه أعرف الناس بقدر الله تعالى ومقامه[1].

ورحم الله الإمام الغزالي عندما غاص في تلك المسألة فاستخرج منها درراً ثمينة: (الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين: أحدهما ـ أن يُبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحسّ، وتصيبه جراحةٌ وهو لا يدرك ألمها، ومثاله الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه ـ أو في حال خوفه ـ قد تصيبه جراحةٌ وهو لا يحسّ بها، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة.

بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحسّ بألم ذلك لشغل قلبه، بل الذي يحتجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة، يتألم، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته، فرغ المزّين والحجّام وهو لا يشعر، وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور، مستوفىً به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهمّ بمشاهدة معشوقه أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه، هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه، وشُغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل.

وإذا تُصُوِّرَ هذا في ألمٍ يسير بسبب حبٍ خفيف تُصُوِّر في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم، وكما يقوى حبُّ الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدرَكة بنور البصيرة، وجمالُ حضرة الربوبية وجلالُها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش

---

(١) مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدُّكم له خشية». والحديث في صحيح البخاري برقم (٦١٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٦).

ويغشى عليه ، فلا يحسّ بما يجري عليه . . .

والوجه الثاني ـ فهو أن يحسّ به ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضياً ، بل راغباً فيه ومريداً له ، أعني بعقله ، وإن كان كارهاً بطبعه ، كالذي يلتمس من الفصاد الفصدَ والحجامةَ ، فإنه يدرك ألمَ ذلك ، إلا أنه راضٍ به وراغب فيه ، ومتقلد من الفصادية مِنَّةً بفعله ، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم .

وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقّة السفر ، ولكن حبّه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها ، ومهما أصابته بليّة من الله ، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادّخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . . .) .

ومن صدق من يدّعي محبة الله أن يسمع كلامه فينفذه ، وهذا معنى طاعة الله ، وإلا كان الأمر ادّعاءً فقط :

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في القياسُ شنيعُ
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمن يحبُّ مطيعُ[1] .

وقديماً قال علماء السلوك :

المحبة أن تحبّ ما أحبّ الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، وألا تخاف في الله لومة لائم . . .

ب ـ الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى :

رحم الله ابن القيّم عندما أشاد بمنزلة الذكر ومكانته ، فقال :

(. . . وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزوّدون ، وفيها يتبحرون ، وإليها دائماً يتردّدون) .

ذلك لأن ذكر الله له أثر عميق في النفس ، وفيه جلاء للقلوب من العلل ، وهو يجسّد معنى العبودية لله ، قال الله تعالى وهو يصف حال الذاكرين : ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) البيتان في العقد الفريد لابن عبد البر : ٣/ ٢١٥ ، ويُقال إنهما للإمام الشافعي رحمه الله .

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

من هنا ندرك سبب تهديد الله تعالى للذين يغفلون عن ذكره، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٣).

وليس للذكر مكان معين ولا زمان معين، إنما هو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٤).

وعندما يصبح ديدن العبد ذكر ربّه يقترب منه فيحبّه ويعظّمه ويقدّسه سبحانه وتعالى، وهذا هو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام.

٥ ـ أجل!

إن من يتذوّق حلاوة حبّ خالقه وسيّده والمتفضّل عليه، لا يجد في حبّ غيره أي طعم أو حلاوة، وهذا ما نراه جلياً في قصة السّحرة مع فرعون: ﴿... فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٥).

وكذلك في قصة الناصح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾(٦).

---

(١) الحج: / ٣٥/.
(٢) الأنفال: / ٢/.
(٣) طه: / ١٢٤/.
(٤) آل عمران: / ١٩٠ ـ ١٩١/.
(٥) طه: / ٧٢ ـ ٧٣/.
(٦) غافر: / ٣٨ ـ ٣٩/.

كيف لا . . . !

والمحبّون ينتظرون في الآخرة ما فوق نعيم الجنان ، وهو رضا الله ، كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) .

وعندئذٍ يستحقون مكافأة لا مثيل لها ، وهي رؤية نور وجه الله عز وجل ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢) .

وكذلك أحاديث الرسول الكريم ﷺ ، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : سُئل الرسول ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة؟

قال : «هل تُضامون في رؤية الشمس في يومٍ لا غيم فيه وفي القمر ليلة البدر لا غيم فيه؟» .

قلنا : لا .

قال : «فإنكم سترون ربكم حتى إن أحدكم ليحاضِرُهُ محاضرةً فيقول : عبدي هل تعرف ذنب كذا وكذا؟» .

فيقول يا رب ألم تغفر لي؟

فيقول : «بمغفرتي صِرْتَ إلى هذا»(٣) .

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ : «أسألك لذّة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»(٤) .

وهذا ما نفهمه من قصة نبيّ الله موسى عليه السلام ، حيث استعجل لقاء الله ، وذلك من شدة شوقه إليه ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾(٥) .

---

(١) التوبة : / ٧٢/ .
(٢) القيامة : (٢٢ ـ ٢٣) .
(٣) مسند أحمد : ٤/ ٢٦٤ .
(٤) سنن النسائي : (٧٧٦٣) .
(٥) طه : / ٨٣ ـ ٨٤/ .

شجرة طيبة ـ القرآن الكريم

ورحم الله ذلكم المحبّ عندما عبّر عن حالته وحالة أقرانه من المحبّين بقوله:

قلوبُ المشتاقين منوَّرةٌ بنور الله ، فإذا تحرّك اشتياقهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أني إليهم أشوق. . .

ورحم الله سهل بن عبد الله عندما قال:

من نظر إلى الله عز وجل قريباً منه بَعُد عن قلبه كل شيء سوى الله ، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أسلم قلبه إلى الله تولّى الله جوارحه ، وحرام على قلبٍ أن يشمّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله ، وحرامٌ على قلبٍ أن يدخلَه النور وفيه شيء مما يكره الله. . .

ورحم الله سلطان العاشقين (عمر بن الفارض) (ت: ٦٣٢ هـ) عندما عبّر عن شدة حبه لله سبحانه وتعالى، بحيث فاض الحبّ من قلبه إلى جميع جوارحه، فأشرقت بنور الله، وصفت النفس، وانجلت البصيرة، ولم يعد يرى أحداً إلا الله:

نسختُ بحبّي آية العشق من قلبي ... فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
وكل فتى يَهْوى فإني إمامُه ... وإني بريء من فتىً سامع العذل
ولي في الهوى علم تجلُّ صفاته ... ومن لم يفقه الهوى فهو في جهل

ثم تراه رحمه الله يعبّر بشكل أدقّ عن وصوله إلى درجات الحب العليا ، فيطلبُ من كل من يحبّ أن يأخذ عنه ويقتدي به في الحب:

قل للذين تقدّموا قبلي ومَنْ ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا وبيَ اقتدوا وليَ اسمعوا ... وتحدّثوا بصبابتي بين الورى

ورحم الله السيدة (رابعة العدوية) ، تلكم المرأة العابدة الورعة ، التقيّة العاشقة لله سبحانه وتعالى ، فقد تركت الأغيار والدنيا. . . وتوجّهت بكليّتها إلى الله.

لذلك كانت بحقّ متقدّمة طابور المحبّين ، فمن أقوالها:

يا حبيب الفؤادِ ما لي سواكا ... فارحمِ اليوم مُذنباً قد أتاكا

يـا رجـائـي وراحتـي وسـروري قـد أبـى القلـب أن يُحـبّ سـواكـا

لكن السؤال يأتي هنا: ما هو الدليل على أن حبّ الله فرض وواجب؟

هناك آيات وآيات تدلّ على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢).

وكيف لا يحبّ العبد ربه، وهو الذي يمدّه بالنِّعم لحظةً تلو لحظة، منذ بدء تكوينه في بطن أمه، وإلى ما بعد موته. . . . . .

نِعَمٌ لا تُعدُّ ولا تحصى، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٣).

ومصداقُهُ قول رسول الله ﷺ ـ فيما رواه الترمذي ـ: «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبيّ».

وهل في الكون من شيءٍ إلا وقد سخّره الله للإنسان؟

فهل من الإحسان بعد ذلك أن يتّجه الإنسان إلى بشر مثله، لا يضرّ ولا ينفع، ولا يحيي ولا يميت، فيدعوه ويتذلّل أمامه، وينسى المنعم والصانع والرازق سبحانه وتعالى؟!

إن شئت في فلكٍ أو شئت في مَلَكٍ أو شئت في مدرٍ أو شئت في حجر

فـالكـل ينطـق أن الله خـالقـه وَهْـوُ المليك وربُّ النفع والضرر

ولعمري، إذا سار العبد في أيّ مكان في هذا الكون الفسيح، ونظر بعينِ البصيرة، واستمع إلى ما تنطق به الأجرام والأفلاك، لما كان بوسعه إلا

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) التوبة: ٢٤.

(٣) النحل: ١٨.

السجود بين يدي خالقه وهو يقول: «اللهم إني أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ عملٍ يبلغني حبّك»[1].

يقولون: أين الله، أين عجائبه؟ وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكّـونَ والإيمـان مـلء قلـوبهـم ويُبـدون مـا تلـك القلـوبُ تكـذِّبـه
فأيّ امرئٍ في الجوِّ يرسل طرفه إذا مـا بَـدَتْ أقمـارُهُ وكـواكبـه
وليس يقول: الله في عرش مجده وهـذي حـواشيـه وهـذي مـواكبـه
وأيُّ امـرئٍ مـا سبّـح الله مـرةً إذا راقـب الأزهـارَ وهـي تـراقبـه
عجـائـب ربـي فـي الأنـام كثيـرةٌ ولكنَّ جهل المرء لا شكّ غالبهُ[2]

❑ ❑ ❑

(١) سنن الترمذي: (٣٦٢٧).
(٢) للتوسع يراجع كتاب: تفكرّ ساعة، للمؤلف: ١٤٧ ـ ١٧٩.

الفصل الثاني

ساقُها (محبة رسول الله ﷺ)

١ ـ أخذ الله تعالى العهد على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، أن إذا بُعث وواحد منهم حيٌّ يلزمه اتباعه ونصرته .

لقد كانوا مراحل تمهيدية لمبعث خاتمهم صلوات الله عليه ، مصداق ذلك قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١] .

لذلك فالرسول الخاتم صلوات الله عليه هو أفضل الخلق على الإطلاق ، بما فيهم الأنبياء والمرسلون ، والملائكة المقربون ، كما قال صاحب جوهرة التوحيد :

وأفضل الخلق على الإطلاق   نبيّنا فحدْ عن الشقاق

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»[٢] .

وفي التعليق على الآية السابقة ، قال المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي :

(. . . هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعاً أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام ، متضمناً كل

---

(١) ال عمران : /٨١/ .

(٢) صحيح مسلم : (٢٢٧٦) .

ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبَلَّغَ آدم أولاده هذا المنهج، كما علَّمهم أمور حياتهم ، تماماً مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يقوم بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول النهج للذرية ، ولكن مع توالي الزمن وتتابعه نجد أن بعضاً من مطلوبات الدّين يتمّ نسيانها) .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنساناً يغفل عن جزئيةٍ ما في هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمي صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللّوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ، لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرئ المخالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ، إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفراده جميعاً من أصحاب النفس الأمارة بالسوء؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد عمّ ، ولا بدّ من مجيء رسول ، لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضف خلقُنا إليه شيئاً .

وإن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، في تمام صفات الكمال ولم يضف له هذا الخلق شيئاً ، فهو القائل : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1] .

إذن : فعندما يشرِّع لنا الحق أمراً فهو يشرعه لمصلحتنا ، إنه سبحانه يحبّ لصنعته أن تظفر بسعادة المنهج ، لذلك أنزل المنهج (افعل . . . ولا تفعل)، وحين يقول المنهج (افعل ولا تفعل) فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على

---

(١) الذاريات : / ٥٧ ـ ٥٨/ .

الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمي حرية هناك ، فعندما حرّم الله السرقة ـ على سبيل المثال ـ فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحدٌ أحداً .

إن الحق سبحانه حين منع يدَ واحد من السرقة ، كان في ذلك منع لملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان ، وفي هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنساناً آخر ، وفي ذلك كسب لكل إنسان؛ فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ولكن خذه على أنه مطلوب فيك ومطلوب لك أيضاً . ومثال آخر : لقد حرَّم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره . ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتدّ أي عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغضّ البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتدّ إلى محارمك .

إذن : فكل عبدٍ مؤمنٍ يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعاً ، ولذلك كان الحق رحيماً بنا لأن رَكْبَ الرسل قد تواصل واستمرّ في الكون منذ آدم إلى سيدنا محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبداً ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذي يأتي بالتناقض بين الأديان والمشّرع واحد، وكل الناس عيال له؟

إننا نبرئ الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوّروا الأمر كذلك ، فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها في الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية .

لماذا؟ لأن السلطة الزمنية كانت في أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلّوا باقين على ما أنزله الله عليهم من منهج لقبّلوا يدي أي رسول قادم ، شاكرين له مقدَمَه ومجيئه ، ولقالوا له : ساعدنا على أن نعمّق فهمنا لمنهج الله .

إذن: فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند.

وحينما يأتي رسول ليجد أناساً غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة ، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذي يريده الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التي لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يجيء وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصّبوا للدين الذي كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية.

وقد استمرّ موكب الرسل إلى الخلق ليحميَ الله الخلق من سيادة الانحراف ، واصطفى الله أمة الرسول ﷺ لتحمل الأمانة ، فلن يأتي لها رسول بعد رسول الله صلوات الله عليه ، لأن الله قد ضمن بقاء الخير في هذه الأمة ، فإذا رأيت أناساً بالغوا في الإلحاد، فثق أن هناك أناساً زادهم الله في المدد حتى يحدث التوازن ، لأن الحق هو القائل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

إذن فإن امتنع الوازع النفسي في النفس اللّوامة عند فرد من أمة الرسول ﷺ فسوف يأتي أناس مسلمون ينبهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا ، فهو القائل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٣).

. . . . هذا هو الحال في أمة سيدنا محمد ﷺ ، أما الأمم السابقة لها فقد

---

(١) آل عمران: / ١٠٤/ .
(٢) آل عمران: / ١١٠/ .
(٣) العصر: / ١ ـ ٣/ .

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لا بدّ أن تتدخل السماء وتأتي برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتاً قسرياً إلى أن هناك أشياء تأتي بها المعجزة ، وهي خرق لناموس الكون ، وفي ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبيّ قومه هذا البلاغ : انتظِروا أن يرسِلَ الله إليكم رسلاً ، وساعة يجيء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه وأيّدوه .

كان الرسل ـ عليهم السلام جميعاً ـ مأمورين أن يضعوا في المنهج ، وفي صلبه ، أن السماء حينما تتدخل وتأتي برسول جديد فلا بدّ أن يتبعه أقوامهم ، وألا يتعصّبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحّبون به ، ؛ لأن الرسول إنما يجيء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمّدوا التحريف ، ومن أجل أن يحمي الحق خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذي أخذه على النبيين ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾(١) .

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتي رسول معاصر لرسول ، مثلما عاصر سيدنا شعيب سيدنا موسى عليهما السلام ، وكما عاصر سيدنا لوط سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، ونقول : هذا يحدث ـ أيضاً ـ وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطي لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلا بدّ أن يعطي الرسول مناعة ضد التعصب .

فما داموا قد آمنوا بالرسول واتّبعوه فعليهم حُسْنُ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه :

كونوا في انتظار أن تتدخل مشيئة الله في أي وقت ، فإذا تدخلت في أي وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه

---

(١) آل عمران : / ٨١ / .

موقف المضارّة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العدواة ، بل عليكم أن تنصروه ، وهذا قول واضح وجلي لا لَبس فيه .

ونقول في شرح معنى قوله تعالى : ﴿ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾[1] .

إن الدين يأتي بقضايا متفق عليها ، لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحدة ، لكن الذي يختلف هو الحكم التشريعي الذي قد يناسب زمناً ولا يناسب زمناً آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدّق لما معكم في الأمور الدائرة في منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصص ، فلا بدّ لكم أن تصدّقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ، لأن الرسول ﷺ جاء ليعيد هداية الجماعة التي آمنت بالرسل والتي تؤمن بإله ، وكان مجيء النبي صلوات الله عليه بالمنهج الواضح العقيدة ، والأخبار الصحيحة غير المحرفة ، والقصص التي تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب ، وكان مجيء النبي الخاتم مزلزلاً لمن استمرؤوا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصرّ على اتباع رسولهم فقط ، وبالمنهج الذي تم تحريفه ، ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت بالرسول ﷺ ، وكانت توجد جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتي نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام غايتها تصفيةُ العقائد ، ودعوة لكل متبع لأي رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدّين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة في العقائد؟ أو جاء مصدّقاً لها؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدّقاً لما سبقه من العقائد والأخبار والقصص وإن اختلف في التشريعات التي تناسب زمناً ولا تناسب زمناً آخر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التي تنشأ من اتباع رسول لتقف سدّاً حائلاً أمام رسول آخر ، فالله حين أرسل كل رسول أعطاه الأخبار والحقائق ، وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتي معاصراً ومصدّقاً لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

---

(١) آل عمران : ٨١ .

لماذا؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيماني المتمثل في مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوّاً ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلهم.

فالذي يجعل الإلحاد متفشياً في هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون، وربما كانت العداوة بينهم وبين بعضهم أقوى من العداوة بينهم وبين الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطي المجال للملحدين فيقولون: لو كانت هذه الأديان حقاً لاتفق أصحابها وما اختلفوا ، فما معنى أن يقول أتباع كل رسول إنهم يتبعون رسولاً قادماً من السماء؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليبذروا في الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلاً ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء ، لكن الحق سبحانه يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهذا يعني أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدّق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفي إعلان الإيمان فقط ، بل لا بدّ أن يكون النبي ومن معه في نصرة الرسول الجديد.

نقول: ولو عمل أتباع كل نبيّ بهذا العمل والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجّة.

ثم قال: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ والإقرار سيّد الأدلة كما يقولون ، والإصرُ هو العهد الشديد ، ولذلك يقال: آصرة المودّة ، أي الرابطة الشديدة المعقودة.

وقال الموكب الإيماني للأنبياء موجّهين إقرارهم لله تعالى: ﴿أَقْرَرْنَا ۚ﴾ ، فقال الحق سبحانه: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ ، والشهادة دائماً تقتضي شاهداً ومشهوداً عليه ومشهوداً به.

وما دام الحق سبحانه هو الذي يقول للنبيين الذين أخذ منهم منه العهد والميثاق الحق: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ إذن: فهم في موقف الشاهد، وما المشهود عليه؟

وما المشهود به ، هل يشهدون على أنفسهم؟ أو يشهد كل نبيّ على الأنبياء الآخرين؟ أو يشهد أنه قد بلّغ أمته هذا الإقرار الإلهي؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وإن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض.

إذن: يكون الشاهد نبياً ، والمشهود له نبيّاً آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه.

وقد يكون الشاهد النبي ، والمشهود عليه هي أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ، لأن الأمة ما دامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَن يأتي بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان أمام باطل الإلحاد. . . .)[1].

* * *

٢ ـ لكن ما هي الدوافع إلى أن يحبّ المؤمن رسول الله ﷺ؟

هناك عدد كبير من الدوافع: لعلّ أهمها ما يلي:

أ ـ لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بذلك:

فلا يجوز تقديم محبة أحدٍ على محبته ـ طبعاً غير محبة الله سبحانه ـ مصداق ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده»** وفي رواية أنس رضي الله عنه: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»**[2].

ومصداق ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بتوقيره ﷺ ، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3].

---

(١) تفسير الشعراوي: ٣/ ١٥٦٧ ـ ١٥٧٤.

(٢) صحيح البخاري: رقمه (١٤) و(١٥).

(٣) الفتح: /٨ ـ ٩/.

وبالتالي فاتباعه سبب في محبة الله للمتبع ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

كيف لا . . ! وهو الأسوة والقدوة ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٢) .

كيف لا . . ! وبحبّه تكتمل حلاوة الإيمان، مصداق ذلك ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٣) .

كيف لا . . ! وكلّ من يصلّي عليه ﷺ ، يصلّي الله عليه ، ويقرّبه من المصطفى يوم القيامة ، ويكفيه الله هم الدنيا ، ويغفر ذنبه في الآخرة .

ب ـ أن الله سبحانه وتعالى أرسله رحمة وهداية للناس أجمعين :

فالله أكرم المسلمين برسوله الأمين صلوات الله عليه ، فجعلهم أمة الخيرية والوسطية ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٤) .

وفي صحيح البخاري ما جرى يوم (حُنين) وخاصة فيما يتعلّق بتوزيع الفيء ، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي . . . »(٥) .

وقد صدق الله تعالى عندما خاطب نبيه صلوات الله عليه بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٦) .

---

(١) آل عمران: / ٣١/ .
(٢) الأحزاب: / ٢١/ .
(٣) صحيح البخاري: (١٦).
(٤) البقرة: / ١٤٣/ .
(٥) صحيح البخاري: رقمه (١٣٩).
(٦) الأنبياء: / ١٠٧/ .

وقوله مخاطباً الأمة الخاتمة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٣)].

فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي، وبكى».

فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسلْه: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله. فأخبره بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل له: «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[(٤)].

ومن رحمته أن وضع عن أمته الإصر والأغلال التي كانت على السابقين، لذلك كان دينه دين اليسر والسماحة، مصداق ذلك قوله تعالى في سياق وصف الرسول ﷺ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[(٥)].

ج ـ أن الله خصّه بكرامات وميزات وصفات لا يصل إلى مثلها أحد أبداً:

كان صلوات الله عليه: أشجع الناس، وأجود الناس، وأشدّ حياءً من العذراء في خدرها، متواضعاً، حليماً، رحيماً، حنوناً، عطوفاً، عالماً، أميناً،

---

(١) التوبة: /١٢٨/.

(٢) إبراهيم: /٣٦/.

(٣) المائدة: /١١٨/.

(٤) صحيح مسلم: (٢٠٢).

(٥) الأعراف: /١٥٦ ـ ١٥٧/.

ذاكراً ، صادقاً . . . ، أدّبه ربه تعالى فأحسن تأديبه ، وصدق الله تعالى عندما وصفه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

وكذلك فقد أُعطي جوامع الكلم ، ونُصر بالرعب ، وصلى بالأنبياء والرسل إماماً ، وهو أول من يُبعث ، وهو حامل اللواء يوم المحشر ، وهو أول من يقرع أبواب الجنة ، وله الوسيلة والشفاعة والمقام المحمود والحوض المورود وغير ذلك ﷺ .

د ـ أنه صلوات الله عليه كان يشتاق لرؤية أحبابه وهم الذين يأتون بعده من المؤمنين :

تروي كتب الأحاديث والسير أنه صلوات الله عليه كان يذكر أمام الصحابة الكرام مدى تشوّقه إلى رؤية أحبابه .

مما جعلهم رضي الله عنهم أجمعين يغارون من ذلك ، كيف لا . . ! وهم الذين قدّموا في سبيل نصرة هذا الدين الغالي والنفيس ، وضحّوا بالأرواح والأنفس والأموال ، وتركوا الأوطان والعقارات من أجل سواد عيني رسول الله ﷺ .

مصداق ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة ، فقال : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ووددتُ أنّا قد رأينا إخواننا» .

قالوا : أَوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال : «أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأتِ بعدُ من أمتك يا رسول الله؟

فقال : «أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غُرٌّ محجّلة ، بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيله؟» .

قالوا : بلى يا رسول الله .

---

(١) القلم : / ٤ / .

قال: «فإنهم يأتون غُرّاً محجّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض»[1].

لذلك كان الذي يشغل باله هو كيفية إنقاذ أمته من العذاب، لذلك كان يشقّ عليه تقصير بعضهم...، فجاءت مواساة الله تعالى له صلوات الله عليه تخفيفاً عليه؛ لجزعه وأسفه وحزنه من ذلك.

مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3].

وقوله عز وجل: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

فكيف يُقابَلُ رسول الله الرحيم الحريص على أمته...، بالصدّ والإعراض وعدم الحب و...:

ومن البليّة أن تحبَّ ولا يُحبَّكَ من تُحبُّه
ويصدُّ عنك بوجهه وتُلِحَّ أنت فلا تُغبُّه

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[5].

«ومن أهدى ـ أو صنع ـ إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا، فادعوا الله له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[6].

* * *

(١) صحيح مسلم: رقمه (٣٩).
(٢) فاطر: /٨/.
(٣) الكهف: /٦/.
(٤) الشعراء: /١ ـ ٣/.
(٥) الرحمن: /٦٠/.
(٦) سنن أبي داوود: رقمه (١٦٧٢)، مسند أحمد: ٢/٦٨.

٣ ـ رحم الله الإمام البوصيري عندما قال في مدح المصطفى ﷺ:

بمدحِ المصطفى تحيا القلوبُ ... وتُغتفر الخطايا والذنوبُ
نبيٌّ كاملُ الأوصاف تمَّتْ ... محاسنه فقيل له الحبيبُ
يفرّج ذكرُهُ الكُرُبات عنا ... إذا نزلت بساحتنا الكروبُ
مدائحه تزيد القلبَ شوقاً ... إليه كأنها حَلْيٌ وطيبُ
وأذكرهُ وليلُ الخطبِ داجٍ ... عليَّ فتنجلي عني الخطوبُ
ومن لي أنْ أرى منه محيّاً ... يُسَرُّ بحسنه القلبُ الكئيبُ
ولي طرْفٌ لمرآه مشوقٌ ... ولي قلبٌ لذكراه طروبُ

إلى أن يقول:

له في الليل دمعٌ ليس يرقا ... وقلبٌ ما يغبُّ له وجيبُ
رسولَ الله دعوةَ مستقيلٍ ... من التقصير خاطرُهُ هيوبُ
دعاك لكل معضلة ألمّتْ ... به ولكلِّ نائبةٍ تنوبُ
لجود المصطفى مُدَّت يَدانا ... وما مُدَّتْ له أيْدٍ تخيبُ
شفاعته لنا ولكلِّ عاصٍ ... بقَدْرِ ذنوبه منها ذنوبُ
صلاةُ الله ما سارت سحابٌ ... عليه وما رسا وثوى عسيبَ

لكن السؤال الملحّ:

فما هي الفائدة المرجوّة، والنتيجة المأمولة، من حب المؤمن للرسول ﷺ؟

إن لمحبة المؤمن للرسول آثاراً ونتائج منها:

أ ـ طاعته والاقتداء به صلوات الله عليه: وألا يكون ذلك ادّعاءً لا رصيد له، فالمحب الصادق لا بدّ أن يكون مطيعاً، كما قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في كتابه القيّم (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ): (اعلم أن من أحبّ شيئاً آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدعياً، فالصادق في حبّ النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه.

وأولها: الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال

أوامره ، واجتناب نواهيه، والتأدّب بآدابه في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه، وشاهدُ هذا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾(١).

وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه ، وموافقة شهوته ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾(٢).

إلى أن قال: . . . فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله ﷺ ، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ، ولا يخرج عن اسمها. . .).

ويُقصد بالاقتداء به صلوات الله عليه أن يتخلّق بأخلاقه ، ويتأدّب بآدابه ، ويتّصف بصفاته ، ويتوقف عند عباداته وطاعاته لله ، فيقلده في ذلك ، ولا يخترع ـ يبتدع ـ شيئاً من عند نفسه ، إنما يتّبع الرسول في كل ما يمكن. . .

مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾(٣).

ب ـ **كثرة الصلاة عليه**: وهذا ليس أمراً ترفياً ، إنما هو أمرٌ من الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(٤).

والمؤمن الصادق في محبته يكثر من ذكر حبيبه ، وذلك ليعود عليه النفع في الدنيا والآخرة.

وفي الصلاة عليه اعتراف بما قدّمه لنا ، وفيها تذكير دائم بمحبّتنا له ، وفيها سبب لقرب العبد من النبي ﷺ وسببٌ لعرض اسمه عليه ، راجياً أن يجعل الله

---

(١) آل عمران: /٣١/.
(٢) الحشر: /٩/.
(٣) الأحزاب: /٢١/.
(٤) الأحزاب: /٥٦/.

بالصلاة على النبي سبباً لغفران الذنوب ، وكفاية من كل غم وهم ، وإلا كان من البخلاء العاقين للرسول ﷺ. . .

ج ـ **تعظيم كل ما له علاقة بالرسول ﷺ**: كتعظيم ذكره صلوات الله عليه إذا ورد ، وهذا حال الصحابة الكرام حتى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه ـ بعد وفاة الرسول ﷺ ـ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها ، كما كان رسول الله ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها. . .[١].

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

(قال مصعب بن عبد الله: كان الإمام مالك رحمه الله إذا ذُكر النبي ﷺ يتغيّر لونه ، وينتحب حتى يصعب على جلسائه ، فقيل له يوماً في ذلك.

فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليّ ما ترون:

قال: لقد كنت أرى محمد بن المنكدر ـ وهو من التابعين الثقات ـ وكان سيّد القرّاء ، لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا بكى حتى نرحمه!

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق ـ وكان كثير الدعابة والتبسّم ـ فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ ، اصفرّ ، وما رأيته يتحدّث عن رسول الله ﷺ إلا عن طهارة!

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم ـ وهو ثقة ورع ـ يذكر النبي ﷺ ، فينظُر إلى لونه كأنه نزف من الدّم ، وقد جفّ لسانه في فمه ، هيبةً لرسول الله ﷺ!

ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير ـ وهو ثقة من أكابر عصره ـ فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع!

ولقد رأيت الزهري ـ وهو حافظ فقيه ـ وكان من أهنأ الناس وأقربهم ، فإذا

---

(١) صحيح مسلم: رقمه (٢٤٥٤).

ذُكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته!

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم ـ وهو ثقة فاضل ـ وكان من المتعبّدين المجتهدين ، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى ، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه! . . .)[1].

وكذلك تعظيم سنته ﷺ ، على أساس أنها الشارحة للقرآن الكريم ، وهي الركيزة الثانية بعد القرآن ، ولا يمكن فهم القرآن من دونها . . .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَكُمْ إليها».

قال: فقال بلال بن عبد الله ـ ابن عبد الله ـ: والله لنمنعهنّ!

قال: فأقبل عليه عبد الله فسبّهُ سبّاً سيئاً ، ما سمعته سبّه مثله قط ، قال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهنّ؟![2]

ويدخل في هذا أيضاً: تعظيم صحابته الكرام ، وآل بيته الأطهار ، ومسجده وبلده وحرمه ، وما إلى ذلك . .

د ـ الشوق الدائم إليه ﷺ: وتمنّي أن يكون الإنسان في زمانه ومصاحباً له.

ذلك لأن الصدق في المحبة يؤدي إلى التّشوق إلى رؤية المحبوب ، أو أي شيءٍ يتّصل بالمحبوب.

وهذا الأمر مستمرٌ ودائم الحضور في هذه الأمة المرحومة ، وكل من يزور قبر النبي ﷺ اليوم ، ويدقّق النظر فيما يحدث هناك ، يوقن تماماً بصدق نبوءة رسول الله صلوات الله عليه: «والذي نفسي بيده ، ليأتين على أحدكم يومٌ ولا يراني ، ثم لأن يراني أحبُّ إليه من أهله وماله معهم»[3].

وبالتالي، فكل مسلم لم تكتحل عيناه برؤية الرسول ﷺ يتمنّى لو أنه عاصره ، وجلس بين يديه ، ودافع عن دعوته ، وقدّم ما يملك في سبيل

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: ٢/ ٥٤٥ ـ ٥٦٠.

(٢) صحيح مسلم: رقمه (٤٤٢).

(٣) صحيح ابن حبان: رقمه (٦٦٥١).

نصرته ، وقد لقي أحد التابعين عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال : يا أبا عبد الرحمن! وددتُ لو أني رأيت رسول الله .

فقال عبد الله : وماذا كنت تفعل؟

قال : ألزمه صباحاً ومساءً ، وأقبّله بين عينيه ، ثم بكى التابعي .

فقال عبد الله : ألا أبشّرك بما سمعتُ من رسول الله؟

قال : بلى .

قال : سمعته يقول : «ما اختلط حبي بقلب أحدٍ فأحبّني إلا أدخله الله الجنة»(١) .

فقال التابعي : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، فإنا نحبك حباً لا يعلم مقداره إلا الله وحده .

وصدق الله عندما أوضح المنهج : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(٢) .

* *

٤ ـ لكن قد نسمع من بعض الناس كلاماً معسولاً ، ملخّصه : هذا القرآن بيننا ، حكماً عدلاً ، فلماذا الحديث عن رسول الله ﷺ وحبّه وطاعته؟!

أجل!

لقد قالها عليّ رضي الله عنه : كلمة حقٍ أُريد بها باطل!!

فالله سبحانه وتعالى أوصد جميع الأبواب والطرق إليه ، إلا باباً واحداً وطريقاً واحداً هو الرسول المصطفى ﷺ .

لقد قيّد الله هذه الأمة بقيد ، وسيّجها بسياج ، وأغلق عليها الأبواب ، وأوصد عليها جميع الطرق ، ولم يُبق لها إلا باباً واحداً تلج منه إلى الله تعالى ، وجعل لها صراطاً مستقيماً ، قصيراً واضحاً بيّناً ، من سلكه أمن ، ومن سار

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم : ٧/ ٢٥٥ ، الفردوس للديلمي : ٤/ ٣٣ [سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني : (٤٤١٥)] .

(٢) النساء : / ٦٥/ .

عليه وصل ، هو: باب المصطفى المختار ، ومحجّته البيضاء ، وصراطه المستقيم ، ولم ولن يتقبل الله تعالى من أحد ـ مهما كان ـ أن يتعبّد على غير شرعه ، أو يسلك غير طريقه ، أو يخترع عبادة له مهما كان ، إلا إذا اتّبع هدي وسنة رسول الله ﷺ.

وبالتالي فالقرآن الكريم هو الحَكَم الفصل ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

لكن من الذي يدلّنا على الصراط المستقيم؟ أَوَيخترع كل واحدٍ منّا دليلاً يدلّه على الصراط الهادي المستقيم؟!

أبداً، إنما شرح لنا القرآن ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾(٢).

ورحم الله الإمام القرطبي عندما ذكر في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) قصةً رائعة حدثت مع الصحابي الجليل (عبد الله بن زيد) رضي الله عنه:

لما وصله خبر انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ترك كل شيء ، وانطلق إلى المسجد النبوي الشريف وهو يبكي . . .

فلما رأى رسولَ الله ﷺ مسجّى انكبّ عليه وراح يقبّله ، ثم رفع يديه وقال: اللهم أعْمني فلا أرى شيئاً بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي!

قال: فعمي في مكانه!

إذن:

لا بدّ من التوقّف ـ ولو قليلاً ـ مع بعض نماذج حبّ الآخرين للرسول ﷺ ، وذلك من باب التّذكر والاعتبار ، سائلين المولى سبحانه أن يجعلنا من أمثال هؤلاء:

---

(١) الأنعام: / ١٥٣/ .

(٢) الشورى: / ٥٢ ـ ٥٣/ .

ـ حتى الجمادات أحبّت النبي ﷺ!!

فذات يوم كان الجيش الإسلامي عائداً إلى المدينة المنورة ، فلما شارف على الاقتراب منها ، أوقف الرسول الجيش وقال: «هذه طابة ، وهذا أُحد ، أُحد جبلٌ يحبّنا ونحبّه»[1].

. . . وجذع النخل اليابس ، عندما تركه رسول الله ﷺ ، وراح يخطب على المنبر ، لقد صاح الجذع الميّت وحنّ إليه.

ورحم الله الحسن البصري عندما خاطب المسلمين قائلاً:

يا معشر المسلمين! الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

ورحم الله الإمام الشافعي عندما قال: ما أعطى الله تعالى نبيّاً مثلما أعطى محمداً.

فقال له عمرو بن سواد: أعطى عيسى عليه السلام إحياء الموتى.

فقال الشافعي: أعطى محمداً ﷺ حنين الجذع حتى سمع صوته ، وهذا أكبر من ذلك. . .[2].

. . . والحجر سلّم عليه صلوات الله عليه ، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث ، إني لأعرفه الآن»[3].

. . . والشجر سعى إليه صلوات الله عليه[4].

. . . وأضاءت المدينة يوم دخوله صلوات الله عليه[5].

---

(١) مسلم: رقمه (١٣٩٢).
(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٦٠٣.
(٣) صحيح مسلم: رقمه (٢٧٧).
(٤) مسند أحمد: ٤/ ١٧٣.
(٥) سنن الترمذي: رقمه (٣٦١٨).

. . . وأخبرته الشاة المسمومة صلوات الله عليه[1] .

. . . والطعام . . . والحصى سبّح بين يديه صلوات الله عليه[2] .

أجل!

إذا كان هذا حال الحيوانات والجمادات والنباتات مع رسول الله ﷺ ، فكيف يكون حال المؤمنين الصادقين المحبّين؟!

إن التاريخ قد سطّر لنا صفحات مجيدة ، كُتبت بأحرف من نور على صحائف من ذهب ، وخاصة ما كان عليه الرعيل الأول من محبةٍ للرسول الأكرم صلوات الله عليه ، ومن الأمثلة على ذلك :

الصّديق أبو بكر رضي الله عنه، كان شديد الخوف على رسول الله ﷺ، وذلك من شدة حبّه له صلوات الله عليه ، لذلك ضحّى بالغالي والنفيس في سبيل نصرة دعوته ، وقصة صحبته له في الهجرة وما حدث في الغار . . . دليل واضح على الحبّ والشوق إلى النبي صلوات الله عليه . . ، بل إن كل أمنيات الصدّيق كانت تدور حول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فأمنياته كانت :

١ ـ النظر إلى وجه رسول الله .

٢ ـ إنفاق ماله بين يديه .

٣ ـ أن تكون ابنته زوجة له صلوات الله عليه . . .

ولصدق الصدّيق في الحب ، حقّق الله له هذه الأمنيات الثلاث ، وزاد من فضله وكرمه ، فجعله الصاحب في القرآن : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[3] .

. . . وذلكم أبو الحسن عليّ رضي الله عنه ، والذي نال أعلى وسامٍ في تاريخ البشرية ، حيث قال عنه الرسول ﷺ يوم خيبر : «لأعطيّن الراية غداً ،

---

(١) صحيح مسلم : رقم (٤٥) ، سنن أبي داوود : رقم (٤٥١٣) .

(٢) سنن الترمذي : رقمه (٢٦٣٣) ، سنن البيهقي : ٦/ ٦٥ .

(٣) التوبة : / ٤٠/ .

رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله»[1] .

ومن آيات حبّه لرسول الله ﷺ نومه على فراشه ليلة الهجرة ، وكانَ في تلك الليلة ـ ما كان ، من تهديد المشركين بقتل رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يتردّد عليّ رضي الله عنه في أن يفدي الرسول ﷺ بنفسه . .

وقيتُ بنفسي خير من وطئ الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجْرِ
رسـول إلـهٍ خـاف أن يمكـروا بـه ... فنجاه ذو الطول الإلـهُ مـن المكر
وبـات رسـولُ الله فـي الغـار آمنـاً ... وقد سار في حفظ الإله وفي سِتْرِ
وبـتّ أداعيهـم ومـا يَتْهمُـونني ... وقد وُطِّنَتْ نفسي على القتل والأسْرِ

. . . وذلكم ثوبان رضي الله عنه ـ مولى رسول الله ﷺ ـ[2] :

يسأله الرسول ﷺ: «يا ثوبان! ما غيّر لونك؟» .

فقال: يا رسول الله! ما بي وجعٌ ولا ضرّ، غير أني إذا لم أركَ اشتقت إليك، واستوحشتُ وحشة شديدةً، حتى ألقاك، ولولا أني أجيء فأنظر إليك ، لظننت أن نفسي تخرج، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف ألا أراك هناك، لأني عرفت أنك مع النبيين، وأني ـ إن دخلت الجنة ـ كنت في منزلةٍ هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل ، فذاك حين لا أراك أبداً ، فيشقّ ذلك عليّ ، وأحبّ أن أكون معك.

فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[3] .

. . . وذلكم (زيد بن الدثنة): لما قُدّم للقتل ، سأله أبو سفيان قائلاً: أنشدك بالله يا زيد! أتحبّ أن محمداً الآن عندنا في مكانك، تُضرب عنقه ، وأنت في أهلك؟!

قال زيد: والله ما أحبّ أن محمداً ﷺ في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالسٌ في أهلي.

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٥٨، صحيح مسلم: (٤٤٠٧).
(٢) أسباب نزول القرآن، للإمام الواحدي: ١٥٨ .
(٣) النساء: /٦٩ ـ ٧٠/ .

فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت أحداً من الناس ، يحبُّهُ أصحابه ، كما يحبّ أصحاب محمد محمداً ـ ﷺ ـ.

. . . وذلكم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، كان إلى جوار الرسول ﷺ وهو يحتجم.

فالتفت إليه الرسول ﷺ وقال: «خذ هذا الدم فضعه في مكان لا يعرفه أحد».

فانطلق عبد الله ، ثم رجع بعد قليل.

فقال الرسول ﷺ: «ماذا فعلت؟».

قال: يا رسول الله! شربته!

قال: «لمَ؟».

فقال: أحببتُ أن يكون دمُ رسول الله في جوفي ، عسى ألاّ تمسني النار يوم القيامة!![1]

. . . وذلكم رجل كان يلبس في يده خاتماً من ذهب ، فلما رآه الرسول ﷺ قال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار ، فيجعلها في يده؟!».

فطرح الرجل الخاتم على الأرض.

فلما ذهب رسول الله ﷺ قيل للرجل: خُذْ خاتمك وانتفع به.

قال: لا والله لا آخذه أبداً![2]

. . . وتلكم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، حينما دخل عليها والدها ـ في غزوة الحديبية ـ نظر في أرض الغرفة فلم يرَ إلا فراش النبي ﷺ ، فأراد أن يجلس عليه ، فأسرعت أم حبيبة إلى الفراش فطوته!

فقال: يا بنيّة! أرغبت بهذا الفراش عني ، أم رغبت بي عنه؟!

فقالتْ: بل هو فراش رسول الله ، وأنت امرؤ نجسٌ مشرك!!

. . . وتلكم أم عمارة تقف أمام رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، لتتلقّى النبال

---

(١) مسند البزار: ٩/ ١٧٨.

(٢) صحيح مسلم: (٢٠٩٠).

شجرة الحب ـ القرآن الكريم

والسهام بصدرها، فداءً للرسول ﷺ![1]

... وذلكم الغلام طلحة بن البراء ينطلق لقتل أبيه، لأن الرسول أمره بذلك ممازحاً!

أجل!

حكايات وقصص تدور حول محبّة الرعيل الأول، وكيف كانوا يتبركون بفضل وضوئه ﷺ! وكيف كانوا يتسابقون إلى الحصول على شعرة من شعراته والحلاق يقصها له! وكيف كانوا يتنافسون في أخذ خطام ناقته ليكون ضيفاً عند واحد منهم! وكيف كانوا يحرصون على أي شيء له علاقة به ـ كالسيف ـ ونحو ذلك!

وصدق الله عندما وصفهم متجمّعين حول رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[2].

ونحن لا نملك إلا أن ندعو الله تعالى أن يكرمنا بزيارة حبيبنا في الدنيا، وبشفاعته في الآخرة، مرددين مع الشاعر حسان رضي الله عنه:

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني ... وأجملُ منك لم تلِدِ النساءُ
خُلقت مبرّءاً من كل عيبٍ ... كأنك قد خُلقت كما تشاءُ

❑ ❑ ❑

---

(١) للتوسع يراجع كتاب: النساء شقائق الرجال، للمؤلف: ٣١٣ ـ ٣٣٧.
(٢) الفتح: /٢٩/.

الفصل الثالث
فروعها في السماء

قلنا إن المحبة لها جذور عميقة ثابتة وهي محبة الله تعالى ، ثم ينمو عنها ساق مرتفع وقوي وهو محبة رسول الله ﷺ ، ويتفرع عن هذا الساق عدد كبير من الفروع ، بحيث يكتمل هيكل شجرة الحب التي تضمّ الإسلام والإيمان كله .

وبالتالي : هل الإيمان إلا الحبّ في الله ، والبغض في الله؟

لكن لا نستطيع حصر تلك الفروع في عدد قليلٍ من الصفحات ، لذلك آثرنا أن نصرّح ببعض عناوين الفروع ، تاركين التوسعة للمراجع والمصادر :

أ ـ حبّ القرآن الكريم :

وكيف لا يحبّ المؤمن كتاب الله الذي ربط السماء مع الأرض ، فكان أمراً عجباً!

وكيف لا يحبّ المؤمن كتاب الله، وهو روح الحياة وجوهرها، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] .

وهكذا ، فالقرآن يعرّفنا على الله عز وجل ، وبذلك تتحقق عبوديتنا لله ، وذلك لأن تدبّر القرآن هو الوسيلة لمعرفة ما يريده الله منا . . .

والقرآن يربّي عقولنا ، من حيث انفتاحها على الحقائق النافعة ، والتحذير من الأمور الضارّة والشاذة . . .

---

(١) الشورى : / ٥٢ ـ ٥٣ / .

شجرة الحب في القرآن الكريم

والقرآن فيه الشفاء والعلاج للأمراض ، خاصةً أمراض القلوب والصدور ، من شبهات ونحو ذلك ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

ونعتقد أن سبب مشاكلنا وأمراضنا الاجتماعية و . . . هو البعد عن كتاب الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(٢).

وإذا أُحيط بالأمة من كل مكان ، فلا مخرج لها إلا بالعودة إلى كتاب الله تعالى ، مصداق ذلك قول المصطفى ﷺ: «ألا إنها ستكون فتنٌ» ، قلت: فما المخرج؟

قال: كتاب الله»(٣).

أجل! فحبّ القرآن الكريم فرع لشجرة الحب ، حيث من أحبّ الله أحب كتابه ، ومن أحبّ رسوله صلوات الله عليه أحب القرآن الذي نزل على قلبه من عند أحكم الحاكمين.

نسأل الله تعالى أن يرفع بنا راية القرآن ، وأن يعلي بنا كلمة الإسلام ، وأن يحبب إلينا فهم القرآن والوقوف عند حلاله وحرامه . . .

ب ـ حب الإنسان لوالديه:

وكيف لا يحب الإنسان والديه ، وقد ربط الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إليهما ، قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

---

(١) يونس: /٥٧/.
(٢) طه: /١٢٤ ـ ١٢٧/.
(٣) سنن الترمذي: (٢٩٠٦).

شجرة الحب ـ القرآن الكريم

﴿لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[١].

وكيف لا يحب الإنسان والديه وقد سهرا حين مرضه؟ وبكيا من أجل مصابه؟ وجاعا ليطعماه ، و . . . .

لذلك تعتبر الشريعة برّ الوالدين من أفضل الأعمال وأحبها عند الله عز وجل :

سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ: أيّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟

فقال: «الصلاة على وقتها».

قال: ثم أيُّ؟

قال: «برّ الوالدين».

قال: ثم أيّ.

قال: «الجهاد في سبيل الله»[٢].

وكيف لا يحب الإنسان والديه وهما الطريق الموصل إلى الجنة أو إلى النار؟

ففي سنن ابن ماجه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن مكانة الوالدين.

فقال: «هما جنّتاك ونارك»[٣].

وكيف لا يحبّ الإنسان والديه ، والنظرُ إلى وجههما عبادة ، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «ما من رجلٍ ينظر إلى والديه نظرة رحمةٍ إلا كتب الله بها حجةً مقبولةً مبرورةً».

وكيف يعصي الإنسان أوامر والديه ويعقّهما، والشريعة تعتبر ذلك من الكبائر؟

---

(١) الإسراء: / ٢٣ ـ ٢٤/ .

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٧، صحيح مسلم: (٨٥)، سنن الترمذي: (١٨٩٩).

(٣) سنن ابن ماجه: (٣٦٥٢).

ففي صحيح البخاري أن النبي صلوات الله عليه قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[1].

وما أجمل تعليمات الشريعة وتوجيهاتها للأبناء والبنات، وفيها أن يدعو المؤمن فيما بين السجدتين في كل صلاة بقوله: رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً. . . .

ج ـ حبّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم[2]:

إن صحابة رسول الله ﷺ هم صفوة من البشر، اختارهم الله ليكونوا سياجاً حول الرسول، وليكونوا أنصاراً لبدايات الدعوة، وليكونوا حملة السيوف للدفاع عن الرسول في وقت كان فيه كثيرون حملةً للسيوف ضد رسول الله ﷺ.

وقد باعوا كل شيء في سبيل نيل رضا الله ورسول الله ﷺ.

وتقبل الله منهم ذلك كله، فحطّم على أيديهم أكبر إمبراطوريات ذلك الزمان: الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية.

وكانوا بحق جيش الله المطهّر الذي أحدث الله على يديه المعجزات الإلهية، لذلك رضي عنهم فقال: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[3].

واعتبرهم من عباده الفائزين، فقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

من هنا يأتي حبّ كل مؤمن لهم رضي الله عنهم، وهذا تطبيق لأمر الله ورسوله:

---

(١) صحيح البخاري: (٦٧٦٩).
(٢) للتوسع يراجع كتاب: فضائل الصحابة في ميزان الشريعة، للمؤلف: ١٤٧ ـ ١٧٩.
(٣) الفتح: /١٨/.
(٤) الأعراف: /١٥٧/.

«لا تسبوا أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1].

«خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته»[2].

نسأل الله تعالى أن يجعل قلوبنا تحبّ جميع صحابة رسول الله ﷺ ، مرددين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

د ـ حب آل البيت عليهم السلام[4]:

آل البيت هم السابقون إلى الخير والفضل والأخلاق الحميدة ، وكما قال الإمام عليّ رضي الله عنه: (فيهم كرائم القرآن ، وهم كنوز الرحمن ، إن نطقوا صدقوا ، وإن صمتوا لم يُسبقوا).

وعن طاقاتهم العلمية والفكرية: (هم عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وصمتهم عن حِكَمَ منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الإسلام ، وولائج الاعتصام).

وكيف لا يحبّ المؤمن آل بيت الرسول ، وهو يدّعي حب الله وكتابه؟ والله وصفهم في القرآن بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[5].

وكيف لا يحبّهم كل مؤمن ، ورسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه ، وأهلي أحبّ إليه من أهله ، وعترتي أحبّ إليه من عترته ، وذريتي أحبّ إليه من ذريته»[6].

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٢١ ، صحيح مسلم: رقمه (٢٥٤٠).
(٢) صحيح البخاري: ٥/ ١٩١ ، صحيح مسلم: رقمه (٢٥٣٣).
(٣) التحريم: /٨/ .
(٤) للتوسع يراجع كتاب: فضائل آل البيت في ميزان الشريعة، للمؤلف: ٥٦ ـ ٨٧.
(٥) الأحزاب: /٣٣/ .
(٦) شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ١٨٩ ، المعجم الكبير للطبراني: ٧/ ٧٥.

وكيف لا يحبّهم كل مؤمن، والرسول يقول فيهم: «من اصطنع لأحدٍ من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا، فعليَّ مكافأته غداً يوم القيامة إذا لقيني»(١).

ورحم الله الإمام الشافعي عندما فهم من أصول الشريعة مكانة آل البيت، فقال:

يا آل بيت رسول الله حُبُّكُمُ ... فرضٌ من الله في القرآن أنزله
يكفيكمُ من عظيم الفخر أنكمُ ... من لم يُصلِّ عليكم لا صلاة له

نسأل الله تعالى أن يجعل حبّ آل البيت في قلوبنا إكراماً لحبيبنا المصطفى محمد ﷺ، وأن يحشرنا معهم يوم الدين، تحت ظلال شفاعة النبي صلوات الله عليه.

هـ ـ حبّ الجيران:

وهذا أمرٌ من الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ ﴾(٢).

وهو توجيه من رسول الله ﷺ، كما في الحديث المتفق عليه: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»(٣).

وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره»(٤).

وفي وصيته صلوات الله عليه لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر! إذا طبخت مرقةً، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»(٥).

أما الذين يؤذون جيرانهم، فلينتظروا تهديد المصطفى صلوات الله عليه، كما في سنن الترمذي: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن».

قالوا: من يا رسول الله؟

قال: «الذي لا يأمن جارُهُ بوائقه»(٦).

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني / ١٤٤٦/.
(٢) النساء: / ٣٦/.
(٣) صحيح مسلم / ٢٦٢٥/.
(٤) صحيح مسلم / ٤٨/.
(٥) صحيح مسلم / ٢٦٢٥/ ١٤٢.
(٦) صحيح البخاري / ٥٨٧٨/.

ويأتي التفصيل النبويّ، كما في رواية الطبراني ليبيّن حقوق الجار على جاره:

«حق الجار: إن مرضَ عدّته، وإن مات شيّعته، وإن افتقر أقرضتّهُ، وإن أعور سترته، وإن أصابه خيرٌ هنأته، وإن أصابته مصيبة عزّيته، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسدّ عليه الريح، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له منها»[1].

ولو طبق أفراد المجتمع وصايا رسول الله ﷺ في احترام الجيران وحبهم، لعاش المجتمع في سعادة لا مثيل لها. وصدق الرسول ﷺ بقوله: «ما آمن بي من بات شبعانَ، وجاره جائع وهو يعلم»[2].

نسأل الله أن يحببنا بجيراننا، وأن يجعلنا وإياهم تحت ظلال عرش الله يوم القيامة.

و ـ حبّ صلة الأرحام:

ذلك لأن صلة الأرحام تزيد المال! وتخلّد الذكر الحسن الجميل! وتزيد في العمر، مصداق ذلك ما رواه النسائي في السنن أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يمدَّ الله في عمره ويزيد في رزقه، فليبرَّ والديه، وليصل رحمه»[3].

ولأن قطع الأرحام فيه عقوبات دنيوية وآخروية، ففي الحديث المتّفق عليه يقول الرسول ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرحم، فشققتُ لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَتُّهُ».

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[4].

أجل!

فحبّ صلة الأرحام يعود إلى أن الله وعد كل من يمُدُّ يد العون والعطف والرحمة إلى أرحامه، ولو بشيءٍ قليل، وعده بأنه سيرضى عنه، وسيقرّبه

---

(١) المعجم الكبير للطبراني / ١٠١٤/.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ١/ ١٤٧.

(٣) مسند الإمام أحمد / ١٣١٠٩/.

(٤) محمد: / ٢٢ ـ ٢٣/.

إليه ، وسيصله بقوته وعزته ، وأما الذين يقطعون الصلات مع أرحامهم فلهم العقوبات من الله تعالى: «قال الله تبارك وتعالى للرحم: خلقتك بيدي وشققتُ لك من اسمي ، وقرّبتُ مكانك مني ، وعزتي وجلالي لأصلنّ من وصلك ، ولأقطعنّ من قطعك حتى ترضين»[1].

«ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي»[2].

نسأل الله تعالى أن يحببنا بأقربائنا، وأن يجعلنا نصلهم ونساعدهم.. آمين[3].

ز ـ حبّ الأصدقاء:

هناك صفات يجب أن نبحث عنها في الذي نريد مصادقته ، أهمها:

١ ـ الخلق الكريم ٢ ـ العقل ٣ ـ العلم ٤ ـ الوفاء ٥ ـ الزهد ٦ ـ الحكمة ٧ ـ الفضيلة

هناك صفات يجب أن نبحث عنها في الذين لا تصحّ مصادقتهم ، أهمها:

١ ـ الكذابون ٢ ـ الفجار ٣ ـ الحمقى ٤ ـ البخلاء

وهناك طرق عديدة لاكتساب الأصدقاء ، أهمها:

١ ـ الاحترام ٢ ـ الإصغاء إليهم ٣ ـ التقدير ٤ ـ ترك الجدل ٥ ـ ترك اللوم والعتاب

وبالتالي، فالصداقة تعتبر من القضايا الملحّة في حياتنا، بل وترتبط بمصيرنا، وفوق ذلك فهي قضية خطيرة أيضاً، وذلك لما للصديق من تأثير كبير على صديقه.

من هنا تعلّمنا الشريعة الإسلامية أن إذا وجدتم صديقاً يحمل الصفات الحسنة ، فتمسكوا به ، وحافظوا على صداقتكم معه ، وأحبّوه في الله.

ففي صحيح البخاري بالسند المتصل إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن

---

(١) سنن الترمذيالترمذي / ١٨٣٠/ .

(٢) صحيح ابن حبان (٢ : ١٠٩).

(٣) للتوسع يراجع موسوعة: الأختلاق الإسلامية، للمؤلف: ٤/ ٥٦ ـ ٦٩.

شجرة الطيبة ـ القرآن الكريم

رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟

قال: أريد أخاً لي في هذه القرية.

قال: هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها؟

قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى.

قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبَّك كما أحببته فيه»[1].

وفي سنن الترمذي قول رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

وفي سنن ابن ماجه قوله صلوات الله عليه: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[3].

نسأل الله أن يدلّنا على أصدقاء الخير، لنحبّهم في الله، فنعيش معهم عيشة راضية لا نسمع فيها لاغية...

ح ـ حبّ المؤمنين:

في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسرٍ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[4].

ومحبة المؤمن تعني: مساعدته، وتنفيس كربته، والستر عليه وعلى عياله، وأن تقدّم له المشورة، وصدق الرسول ﷺ عندما قال: «أفضل الأعمال: إدخال السرور على مؤمنٍ: كَسَوْتَ عورته، أو أشبعتَ جوعته، أو قضيت له حاجته»[5].

والشريعة الإسلامية رسمت العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم، من ذلك قول النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا،

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٧).

(٢) سنن الترمذي: (٣٣٠٠).

(٣) سنن الترمذي: (٢٣١٨).

(٤) صحيح مسلم: (٢٦٩٩).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي: ٦/ ١٢٣، وغيره.

ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[1].

ولعمري، إذا عاش المجتمع المؤمن، وكل فرد منه يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، فإنه سيعيش السعادة المطلقة في الدنيا، وسيؤول الجميع إلى جنّةٍ الله ورضوانه، مستظلين بقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[2].

ط ـ حبّ الكلمة الطيّبة:

وهي كلمة الحق، حيث شبهها الله تعالى بالنخلة السامقة الثابتة المثمرة، التي لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان، وهي شجرة مثمرة لا ينقطع ثمرها.

ولا يمكن الوصول إلى محبة الكلمة الطيّبة إلا إذا درّب الإنسان نفسه على الصّدق وقول الحق، وحافظ على لسانه، وخاف من عواقب الغيبة والنميمة، وراقب الله في ذلك، معتبراً بما جاء في القرآن من تحذير: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3].

وتعني الكلمة الطيبة: الجدال بالحسنى، والردّ الحسن على التحية، ومناقشة الآخرين ـ حتى الأعداء ـ وذلك بدل الضرب والتكفير و الرمي بالزندقة و... !![4]

إنما كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[5].

وما أجمل أن يعيش المجتمع على حب الكلمة الطيبة (بالتي هي أحسن) فلا

---

(١) صحيح مسلم /٢٥٦٣/.
(٢) الحجر: /٤٧/.
(٣) ق: /١٨/.
(٤) للتوسع يراجع كتاب: إدفع بالتي هي أحسن، للمؤلف: ٩٧ ـ ١١٥.
(٥) فصلت: /٣٣ ـ ٣٥/.

يتباغض ولا تشيع فيه الكلمات النابية ، وعند ذلك يكون قد وصل إلى رضوان الله ونعيمه . . .

ي ـ حبّ مكة المكرمة :

وكيف لا يحبّ المؤمن مكة؟ وفيها تؤدى شعائر فريضة من فرائض الإسلام وهي الحج ، حيث السعي بين الصفا والمروة ، والوقوف على جبل عرفة ، والطواف حول الكعبة المشرفة ، وبئر زمزم و . . .

وكيف لا يحبّها ، وفيها تتابع غالبية الأنبياء عليهم السلام؟ وفيها الخير والبركات ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾[1] .

وكيف لا يحبّ المؤمن مكة؟ والرسول ﷺ عندما خرج منها ، وقف على جبل من جبالها ، واستقبل الكعبة ثم قال : «والله ، إنك أحب بلاد الله إليّ وإنك أحبّ أرض الله إلى الله عز وجل ، وإنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت»[2] .

وكيف لا يحبها ، والرسول ﷺ أكّد أنه لا زيارة إلا إليها ، ففي صحيح مسلم : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى»[3] .

وكيف لا يحبّها؟ وغالبية أرضها أماكن تُستجاب فيها الدعوات، ففي صحيح البخاري قوله صلوات الله عليه : «وما على وجه الأرض بلدة يُستجاب فيها الدعاء في خمسة عشر موضعاً إلا مكة، أولها جوف الكعبة، والدعاء فيه مستجاب، والدعاء عند الحجر مستجاب، والدعاء خلف المقام مستجاب، والدعاء في الملتزم مستجاب، والدعاء عند بئر زمزم مستجاب، والدعاء على المروة مستجاب، والدعاء بمنى مستجاب، والدعاء بين الصفا والمروة

---

(١) آل عمران : / ٩٦ ـ ٩٧ / .

(٢) موطأ الإمام مالك : باب الجهاد ، رقمه (٢٣)، مسند أحمد : (١٨٣٦٦).

(٣) صحيح مسلم : (١٣٩٧).

مستجاب، والدعاء بين الركن والمقام مستجاب ، والدعاء بعرفات مستجاب ، والدعاء في المشعر مستجاب»[1].

ك ـ حبّ المدينة المنورة:

دار الحبيب أحقُّ أن تهواها — وتحنَّ من طربٍ إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممتَ بزورةٍ — يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
. . . لا كالمدينة منزلٌ وكفى بها — شرفاً حلولُ محمدٍ بفناها
. . . جزم الجميع بأن خير الأرض ما — قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونَعَمْ لقد صدقوا: بساكنها علت — كالنفس حين زكت زكا مأواها

وكيف لا يحبها المؤمن ، وفيها حبيب القلب وحبيب رب الحق ﷺ؟ وفيها ذكريات قيام النواة الأولى للمجتمع المؤمن؟ وفيها تاريخ قائم بذاته؟ وفيها مدفن كبار الصحابة وآل البيت والعارفين بالله رضي الله عن الجميع؟ وكذلك لها خصائصها ، وخاصةً أن الرسول ﷺ دعا لها ولأهلها بالبركة والخيرات ، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا بها قراراً ، ورزقاً حسناً ، وأن يختم أعمالنا بميتةٍ في مدينة الحبيب ﷺ. . .

ل ـ حبّ بيت المقدس:

وكيف لا يحبها المؤمن ، وفيها صخرة بيت المقدس ، والمكان الذي انطلق إليه رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء ، وهناك التقى بالأنبياء والمرسلين ، وصلّى بهم إماماً ، ثم انطلق في رحلة المعراج . . . ؟

وكيف لا يحبها وهي التي لا يدخلها الدّجال ، وهي التي ينزل فيها المهدي و . . . ؟

وكيف لا يحبها وقد ربط الرسول ﷺ المدينة المنورة مع مكة المكرمة مع بيت المقدس، وفي ذلك دروسٌ وعبر وعظات، وصدق الله بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[2].

---

(١) فضائل مكة، للحسن بن يسار البصري: ١/ ٢٤.
(٢) الإسراء: /١/.

نسأل الله أن يعيد تلك الأماكن المقدسة إلى المسلمين ، إنه هو السميع المجيب .

م ـ حبّ الشهادة والشهداء :

إنها مرتبة عالية جداً ، حيث إن الشهيد يقدّم أغلى ما يملك وهي نفسه ابتغاء مرضات الله تعالى ، وليس ذلك إلا علامة على صدق الإيمان ، وبالتالي فهي اصطفاء واختيار لكل من صدق مع الله ، لذلك أعدّ الله لهم الدرجات العلى ، فأرواحهم حية مرزوقة ، يسرحون في الجنان ، حيث السعادة والرضوان ، وقد غُفرت ذنوبهم ، وألبستهم الملائكة تيجان الوقار ، وبشرتهم بالأمان من الفزع الأكبر و . . .

ألا يكفيهم قول الرسول ﷺ : «للشهيد عند الله ستّ خصال، يغفر الله له في أول دفعة، ويُرىٰ مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويُزوّج ثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين ، ويُشفّع في سبعين من أقاربه»[1] .

نسأل الله تعالى أن يجعل نفوسنا مروّضة على حب الشهادة والاستشهاد في سبيله ، عسى أن تُغفر ذنوبنا ، وتُمحى آثامنا ، ونلقى ربنا وهو عنا راض ، ونحشر مع النبيين والصدّيقين وحسن أولئك رفيقاً . . .

أجل!

إن فروع شجرة الحبّ كثيرة ، لا يمكن الإحاطة بها في هذه العجالة ، لكن إلى الفروع التي ذكرناها باختصار يمكن إضافة حب: العربية ، والوطن ، والعلم والعلماء ، وكل عباد الله ، وحب الزوج لزوجته ، وحب الزوجة لزوجها ، وحب الأولاد والبنات ، وإلى ما هنالك .

سائلين الله تعالى أن يرسّخ في قلوبنا جذور شجرة الحبّ، وأن يأذن بإنباتها ونموّها ليكون لها ساق وفروع ، عسى أن يستظلّ الجميع بالحب الأبدي . . آمين . . آمين . .

---

(١) سنن الترمذي : (١٦٦٣) ، سنن ابن ماجه : (٢٧٩٩) .

الخاتمة

أحسن الله ختامنا أجمعين

وهكذا عشنا نتفيأ في ظلال شجرة الحب ، حيث فهمنا معاني الحب وغاياته ، وأنه أصلٌ من أصول الشريعة الإسلامية: «وهل الإيمان إلا الحب؟!».

وتعرفنا على منزلة الحب ومقصوده ، وعلى أسبابه وأنواعه ودرجاته ومراتبه ، وآثاره وثمراته.

وتوقّفنا عند آراء الفلاسفة والعلماء والحكماء في الحب ، وكيف كان الحبّ في المجتمعات الجاهلية ، ثم في المجتمعات الإسلامية...

وتركّز الحديث حول محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلوات الله عليه ، ثم تحدثنا عن بعض التفريعات: كحب الصحابة الكرام وآل البيت وما إلى هنالك.

وقد سبقنا في هذا المضمار أفذاذٌ وأقطابٌ ، كابن القيّم ، وابن عربي ، وسمنون ، وابن المبارك ، والنبهاني ، ورابعة ، و... رحمهم الله.

وما حديثنا في ذلك إلا من باب: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وبالتالي؛ فالقلب الذي يتذوّق الحبّ يفرض على صاحبه أن يتحدّث في ذلك ، حتى لو استطاع كتمان ذلك:

مهما كتمتُ لظى شوقٍ يؤرّقني ... قد يفضحُ القلبَ دمعُ العين أحيانا

كيف لا..! والحبّ يفرض نفسه على الأشياء ، فيحوّلها إلى أرواح ، كما قال المحبّ جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى:

(... إن الحبّ يحوّل المرَّ حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاءً ، والألم شفاءً ، والسجن روضةً ، والسّقم نعمة ، والقهر رحمةً.

وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميّت ، وينفخ فيه الحياة ، ويُسوِّد العبد.

وإن هذا الحبّ هو الجناح الذي يطير به الإنسان الماديُّ الثقيل في الأجواء ، ويصل من السمك إلى السِّماك ، ومن الثرى إلى الثريا...).

---

(١) الذاريات: / ٥٥/.

لكن ، وأنا أصل إلى نهايات هذا الكتاب ، أوقن تماماً أن في الناس أناساً لن يعجبهم ما فيه!! ، لا لشيء إلا لأنه حديث في الحبّ ، وكأن الحبّ رجسٌ من عمل الشيطان يجب اجتنابه!!

لكنني أعجب من هؤلاء ـ ومنهم من يهتموّن بمراسِمِ التديّن ـ كيف يقولون ذلك ، ويحرّمون و . . . ، والقرآن ذكر الحبّ في أكثر من ثمانين موضعاً . . . !

والرسول ﷺ تحدث في ذلك كثيراً؟ والسيرة الطاهرة فيها كثير من القصص والأحداث التي تتحدث عن الحبّ في حياة الرسول ﷺ والصحابة و . . .

ولو أن هؤلاء قرؤوا أقوال المتصوفة ورجالات العرفان ، وشعراء المديح و . . . ، لوجدوا أن المسألة تتلخّص بقول أحد المحبّين:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعيرٌ في الفلاة سواء!

لكن، إن كنت قاربت الهدف فأسأل الله تعالى القبول، وإلا . . . فَمِنْ نفسيَ الأمّارة بالسوء ، لكن حسبي أنني تظلّلت في ظلال الحبّ القدسيّ ، وقطّرت عينيَّ دموعاً حارّة ، وتمنّيت من قلبي أن يكون المسلمون جميعاً محبّين محبوبين ، عسى أن أحشر مع المحبّين والعاشقين ، ورحم الله القائل:

أنا المحبّ ومهجتي لا تنثني عن وجدها وهيامها بمحمدِ
قد لامني فيه العذول ولو درى معنى الهيام به لكان مساعدي

وختاماً: أسأل الله تعالى أن يجعل الحب المقدس شفاءً لأمراضنا ، وبلسماً لأرواحنا ، ونوراً لأبصارنا ، وقوتاً لقلوبنا.

وأسأله سبحانه أن يجعل حسنات هذا العمل لكاتبه وقارئه وناشره ، وكل محبّ ، عسى أن يحشرنا الله سبحانه تحت ظلال قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيّد المحبين ، رسول الله ﷺ وآله وصحبه أجمعين . . . .

❑ ❑ ❑

(١) المائدة: / ٥٤/ .

المصـــادر والمراجـــع

- **القرآن الكريم** ، وتفسيراته .
- **كتب الأحاديث النبوية** : الصحاح والسنن والمسانيد و . . .
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق عبدالعزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ١٩٨٩ دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ** ، القاضي عياض اليحصبي ، تحقيق عبده كوشك ، ط ١ ـ ٢٠٠٠ م مكتبة الغزالي ، دمشق .
- **الإصابة في تمييزالصحابة** ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق علي البجاوي ، ط ١ ـ ١٩٩٢ م ، دار الجليل ، بيروت .
- **شرح العقيدة الطحاوية** ، القاضي ابن أبي العز الدمشقي ، ط ٣١ ـ ١٩٩٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- **قطر الولي علىٰ حديث الولي** ، للإمام الشوكاني ، تحقيق الدكتور إبراهيم هلال ، (د . ت . د) .
- **الموسوعة الفقهية** ، وزارة الأوقاف الكويتية ، ط ٢ ـ ١٩٨٩ ، دار ذات السلاسل ، الكويت .
- **الحب عمر رضا كحالة** ، ط ١ ـ ١٩٨٤ م ، د .
- **الحب الإلهي في التصوف الإسلامي** ، محمد حلمي ، ط ١ ـ ١٩٦٠ م دار القلم ، دمشق .

ـ **الحب بين العبد والرب** ، أحمد المحاميد ، ط ١ ـ ١٩٨٥ م ، دار الفكر ، دمشق .
ـ **الحب بين العصور** ، هلال الأصفري ، ط ١ ـ ١٩٩٢ م ، طرابلس ، لبنان .
ـ **الحب في الله** ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط ١ ـ ٢٠٠١ م ، دار الحافظ ، دمشق .
ـ **الحب في القرآن** ، محمود الشريف ، ط ١ ـ ١٩٨٣ م ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت .
ـ **محبة الله والحب بين العبد والرب** ، الإمام ابن تيمية ، تحقيق عبد الله بدران وعبد الرحيم برمو ، ط ١ ـ ١٩٩٢ ، دار الخير ، بيروت .
ـ **محبة النبي وطاعته بين الإنسان والجماد** ، خليل ملا خاطر ، ط ١ ـ ١٩٩٦ م ، دار القلم العربي ، حلب .
ـ **كتاب الفروق** ، للعلامة القرافي بتحقيق محمد سراج ، وعلي جمعة ، ط ١ ـ ٢٠٠١ م دار السلام ، القاهرة .
ـ **المغني** ، للعلامة ابن قدامة ، ويليه الشرح الكبير للإمام ابن قدامة المقدسي ، بتحقيق محمد خطاب والسيد محمد السيد ، ط ١ ـ ١٩٩٦ م ، دار الحديث القاهرة .
ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين** ، الحافظ ابن قيم الجوزية ، ط ١ ـ ١٩٩٧ م ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت .
ـ **موسوعة التفسير قبل عهد التدوين** ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط ١ ـ ٢٠٠٦ م ، دار المكتبي ، دمشق .
ـ **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفىٰ** ، نور الدين السمهودي ، تحقيق الدكتور قاسم السامرائي ، ط ١ ـ ٢٠٠١ م ، موسسة الفرقان للتراث ، مكة المكرمة .
ـ **السيرة النبوية** ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد ، ط ١ ـ ١٩٧٦ م ، دار المعرفة ، بيروت .

- **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية** ، أحمد القسطلاني ، تحقيق صالح الشامي ، ط ١ ـ ١٩٩١ م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- **القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع** ، للحافظ السخاوي ، تحقيق بشير عيون ، مكتبة المؤيد الطائف ، ودار البيان دمشق (د . ت) .
- **النساء شقائق الرجال** ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط ١ ـ ٢٠٠٠ م ، دار المكتبي ، دمشق .
- **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع** ، عبد الرحمن حبنكة ، ط ١ ـ ١٩٩٢ م ، دار القلم ، بيروت .

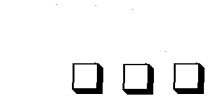

الفهـرس العـام

ـ من مشكاة النبوة ٤
ـ تمهيد ٥
الباب الأول: في ظِلال الحب المقدس!! ٩
ـ الفصل الأول: تعريفات ١١
ـ الفصل الثاني: آراء الفلاسفة والعلماء في معاني الحبّ ١٤
ـ الفصل الثالث: الحبّ في المجتمعات القديمة ١٧
ـ الفصل الرابع: الحب في: القرآن والسنّة والسيرة ٢٤
الباب الثاني: شجرة الحبّ في القرآن الكريم ٥٥
ـ الفصل الأول: أصلها ثابت (محبة الله تعالىٰ) ٥٧
ـ محبة لأجل إحسانه سبحانه ٦٢
ـ محبة لما هو له أهل ٦٣
ـ أي شيء يحرك القلوب؟ ٦٥
ـ حبّ الرب للعبد ٦٦
ـ حب الرب للمحسنين ٦٧
ـ حب الرب للمتطهرين ٧٠
ـ حب الرب للصابرين ٧٢
ـ حب الله تعالىٰ للمقسطين ٧٣
ـ حب الله تعالىٰ للمقاتلين في سبيله ٧٦
ـ حب الله تعالىٰ للمتقين ٧٧

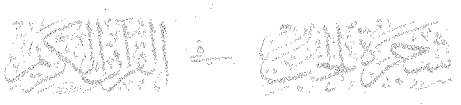

ـ حب الله تعالىٰ للتوابين ٧٩
* الذين لا يحبّهم الله سبحانه: ٨٠
ـ المفسدين ٨٠
ـ الكافرين ٨١
ـ الخائنين ٨٢
ـ المتكبرين ٨٣
ـ الظالمين ٨٤
ـ المعتدين ٨٥
ـ المسرفين ٨٧
ـ الفرحين ٨٧
* حب العبد للرب جل وعلا ٩٠
أ ـ الرضا بكل ما جاء من عند الله سبحانه ٩٠
ب ـ الإكثار من ذكر الله سبحانه ٩٤

الفصل الثاني: ساقها (محبة رسول الله ﷺ) ١٠٠
ـ أمثلة ونماذج من عهد الرعيل الأول ١٠٠
ـ ما هي الدوافع إلىٰ أن يحبّه المؤمن؟ ١٠٧
ـ ما هي الفائدة المرجوة من محبته؟ ١١٢
ـ آثار ونتائج محبة النبي ﷺ: ١١٢
أ ـ طاعته والاقتداء به ١١٢
ب ـ كثرة الصلاة عليه ١١٣
جـ ـ تعظيم كل ما له علاقة به ١١٤
د ـ الشوق الدائم إليه ١١٥
ـ ألا نستطيع الاستغناء عن الرسول بالقرآن!!؟؟ ١١٦
ـ الفصل الثالث: فروعها في السماء! ١٢٣
أ ـ حب القرآن الكريم ١٢٣

ب ـ حب الإنسان لوالديه ١٢٤
جـ ـ حب الصحابة الكرام ١٢٦
د ـ حب آل البيت ١٢٧
هـ ـ حب الجيران ١٢٨
و ـ حب صلة الأرحام ١٢٩
ز ـ حب الأصدقاء ١٣٠
ح ـ حب المؤمنين ١٣١
ط ـ حب الكلمة الطيبة ١٣٢
ي ـ حب مكة المكرمة ١٣٣
ك ـ حب المدينة المنورة ١٣٤
ل ـ حب بيت المقدس ١٣٤
م ـ حب الشهادة والشهداء ١٣٥
ـ الخاتمة ١٣٦
ـ المصادر والمراجع ١٣٩
الفهرس العام ١٤٢